بَلاغة العَربِ

شذرات مختارة

من أقلام
جبران خليل جبران ، أمين الريحاني، ميخائيل نُعيمة،
إيليا أبو ماضي، إلياس فرحات

عني بجمعها

مُحيي الدين رضا

الكتاب: بَلاغة العَرِب

الكاتب: مُحيي الدين رضا

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

رضا ، مُحيي الدين
بَلاغة العَرِب / مُحيي الدين رضا
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٣٣ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٩ – ٧٧٧ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٥٤٣ / ٢٠١٨

بَلاغة العَربِ





مقدمة

يهمني أن أقدم هذا الكتاب لكل متعلم يود أن يكون كاتبًا بليغًا، ليتخذ هذه الأساليب الطريفة إمامًا له يأتم بها ويجتهد أن يحاكيها أسلوبًا وتوقيعًا.

هذه الأساليب سيكون لها المستقبل الزاهر، وسينبلج بشيوعها عصر ذهبي مشرق، حافل بأنواع الجمال والكمال.

نستطيع أن نسمي هذه المناحي الكتابية، والطرق الإنشائية بـ (الأساليب الحية) لأنها حقيقة تحيى في نفس قارئها روح الجمال، وعظمة الإبداع، وجلال المقصد.

ها أنت أيها القارئ الكريم ستقلب صفحات كتابنا وتشرع في قراءته بتلهف رائد، وشغف لا مزيد عليه، ولكن قف بربك ولو هنيهة صغيرة قبل أن تأخذ بتذوق جمال هذه الأساليب، قف لأخبرك أن هذه الكتابات لم تكتب لتكون سلوى لك تمر عليها بنظرك دون أن تحرك لسانك بتلاوتها، إنما هي أشعار منثورة ومنظومة أطلب منك بحرمة أصحابها أن تقرأ قطعة منها إلا بالترتيل الذي يناسبها ويلائم نفسك فيملؤها جمالًا وجلالًا.

ترنَّم ما شئت عند قراءتها حتى تشارك أصحابها بشعورهم وتستأنس بحديثهم، استصحب هذا الكتاب عندما تهتم بالذهاب للرياضة، وهناك عندما تجلس على ضفاف النيل أو في أحد المتنزهات العامة أو الخاصة.. فك عقال الهيبة والوجل وترنم بما حوى هذا السفر النفيس ترنم البلبل الغريد وشارك أصحابها ولو تقليدًا حتى تعي سر نبوغهم وتفوقهم، فتعلم أنهم إنما كتبوا بعد أن ذاقوا مرارة الحياة ولذاتها وخبروها خبرة رفعتهم إلى أوج من السمو لا تستطيع أن تحلق في سمائهم إلا إذا سرت على طريقتهم المثلى.

لا أنكر أن بعض رجال الأدب العربي سبق لهم أن ساروا على الأساليب وأخص منهم بالذكر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فمن ذا الذي يقرأ رسالة من رسائله أو خطبة من خطبه ولا يدهش لجمال أسلوبه البياني، ولو تأملنا لأسلوب القرآن الكريم لوجدناه أمام كل مؤتم بالأساليب الحية لأنه موقعٌ توقيعًا موسيقيًا ينتهي عند كل وقفة منه بخاتمة لها جرس يأخذ الألباب بروعة جماله وجلاله.

أريد أن أقول أنني لم أجمع في مختاراتي هذه عقيدة سياسية أو مذهبًا دينيًا أو مبدأ كفريًا إنما كان غرضي الوحيد هو جمال الأسلوب وطريقة التعبير لا غير فليرح النقدة أنفسهم ولينظروا إلى الكتاب كما نظرت إليه.

أما الطريقة التي سرت عليها في جمع المختارات فهي الطريقة التي ارتاحت لها نفسي فأنا لم أجمعها مرتبة ترتيبًا مقسمًا لنظم ونثر ولم أراع الترتيب على الحروف لأنني لا أريد أن أجعل هذه المختارات قاموسًا أدبيًا ولكن أريد أن تكون خير كتاب أدبي أقدمه لكل متعلم ومتعلمة.

ولا يفوتني أن أقدم عظيم تشكراتي لجناب الدكتور شخاشيري لأنه هو الذي يسَّر لي جمع هذه المختارات بإعارته لي مجلة الفنون التي تصدر في نيويورك فقد كانت لي المعين الأكبر الذي استقيت منه هذه الشذرات العذبة.

ولم يخل كتابنا من بعض أغلاط مطبعية على شدة عنايتنا وعناية المطبعة بذلك ولكنها قليلة ولله الحمد.

محيي الدين رضا

فسطاط مصر في ٧ المحرم سنة ١٣٣٩

جُبران خليل جبران

ابتدع جبران لنفسه طريقة في الكتابة اكتسبت بها إعجاب الجمهور وامتلك قلوب القراء بموضوعاته الشائقة فتحداه في أسلوبه كثيرون من الكتاب المعاصرين، ولكن شتان ما بين الثريا والثرى.

وُلد جبران سنة ١٨٨٣ في بشرى من أعمال لبنان وترعرع في شمالي لبنان تحت سمائه الحرة وفوق أنقاض العصور السالفة، ثم تتلمذ في مدرسة الحكمة في بيروت فتلقن فيها العربية، وهنالك بدأ قلمه السيال بإظهار ما تكنه نفسه الكبيرة من أسرار البلاغة والبيان، ولم يلبث بعد خروجه من المدرسة أن هاجر إلى باريس فأقام فيها أشهرًا، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة فقطن بوسطن مدينة العلم زمنًا اشتغل فيه بالكتابة والتصوير، ثم عاد إلى باريس سنة ١٩٠٨ لينهي فيها دروسه الفنية فأقام فيها ثلاث سنوات حاز في آخرها شهادة الامتياز من كلية الفنون الفرنسية مبرزًا على أربعمائة من رفاقه المصورين مختلفي الجنسية.

وقبلت رسومه في المعرض الأمي السنوي، وسمي عضوًا في جمعية الفنون الفرنسية، ونال عضوية الشرف في جمعية المصورين الإنكليزية، ثم عاد إلى الولايات المتحدة واتخذ نيويورك مسكنًا له، وهو الآن عضو في جمعيات فنية وشعرية عديدة، وله من المؤلفات المطبوعة "نبذة في الموسيقى" و"عرائس المروج"، و"الأرواح المتمردة"، و"الأجنحة

المتكسرة"، و"دمعة وابتسامة"، و"كتاب العواصف"، و"المصطفى"، و"المجنون" – بالإنكليزية وقد عربه – و"المواكب"، وله ديوان شعر طللي نفيس كله عواطف وعواطف روحية.

هذه كلمة صغيرة عن تاريخ جبران، وإليك ما كتبه بنفسه عن تصوراته وحياته الروحية:

يوم مولدي[1]

في مثل هذا اليوم ولدتني أمي. في مثل هذا اليوم، منذ خمس وعشرين سنة، وضعتني السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك.

ها قد سرت خمسًا وعشرين مرة حول الشمس، ولا أدري كم مرة سار القمر حولي، لكنني لم أدرك بعد أسرار النور، ولا عرفت خفايا الظلام.

قد سرتُ خمسًا وعشرين مرة مع الأرض والقمر والشمس والكواكب حول الناموس الكلي الأعلى، ولكن هو ذا نفسي تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما تُرجع الكهوف صدى أمواج البحر، فهي كائنة بكيانه ولا تعلم ماهيته، وتترنم بأغاني مده وجزره ولا تستطيع إدراكه منذ خمس وعشرين سنة خطتني يد الزمان كلمة في كتاب لهذا العالم الغريب الهائل، وها آنذا كلمة مبهمة، ملتبسة المعاني، ترمز تارة إلى لا شيء، وطورًا إلى أشياء كثيرة.

إن التأملات والأفكار والتذكارات تتزاحم على نفسي في هذا اليوم من كل سنة، وتوقف أمامي مواكب الأيام الغابرة، وتريني أشباح الليالي

---

[1] كتبت في باريس في ٦ كانون الأول سنة ١٩٠٨

الماضية، ثم تبددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق، فتضمحل في زوايا غرفتي اضمحلال أناشيد السواقي في الأدوية البعيدة الخالية.

في مثل هذا اليوم من كل سنة تجيء الأرواح التي رسمت روحي متراكضة نحوي من جميع أطراف العالم، وتحيط بي مرتلة أغاني الذكرى المحزنة، ثم تتراجع على مهل وتختفي وراء المرئيات، كأنها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم نجد بذورًا تلتقطها، فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة إلى مكان آخر.

في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة، كأنها ضئيلة أنظر فيها طويلًا فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات، وملامح الآمال والأحلام والأماني المتجعدة كملامح الشيوخ، ثم أغمض عيني وأنظر ثانية في تلك المرآة، فلا أرى غير وجهي، ثم أحدق بوجهي فلا أرى فيه غير الكآبة، ثم أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة.

في الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيرًا، وكثيرًا ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه والذي أحببته عندما كنت صبيًا مازلت أحبه الآن، والذي أحبه الآن سأحبه إلى نهاية الحياة، فالمحبة هي كل ما أستطيع أن أحصل عليه، ولا يقدر أحد أن يفقدني إياه.

قد أحببت الموت مرات عديدة، فدعوته بأسماء عذبة وتشبثت به سرًا وعلنًا، ولئن لم أسل الموت ولا نقضت له عهدًا، فإنني صرت أحب الحياة أيضًا، فالموت والحياة قد تساويا عندي بالجمال، وتضارعا باللذة، وتشاركا بإنماء شوقي وحنيني، وتساهما محبتي وانعطافي.

وقد أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهوان، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، وناصبتها الجهالة المستمرة، ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد، لكنني كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبة الحرية، وأشفق عليهم، لأنهم عميان يقبلون أحناك الضواري الدامية ولا يبصرون، ويمتصون لهاث الأفاعي الخبيثة ولا يشعرون ويحفرون قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون، قد أحببت الحرية أكثر من كل شيء لأنني وجدتها فتاة قد أضناها الانفراد، وأنحلها الاعتزال، حتى صارت خيالًا شفافًا يمر بين المنازل، ويقف في منعطفات الشوارع، وينادي عابري الطريق، فلا يسمعون ولا يلتفتون.

وفي الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر، فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها لكنني لم أجدها قط في سبيلهم، ولا رأيت أثر أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم، ولا سمعت صدى صوتها خارجًا من نوافذها كلهم، ولما انفردت بطلبها سمعت نفسي تهمس في أذنيَّ قائلة: "السعادة صبية تولد وتحيا في

أعماق القلب ولن تجيء إليه من محيطه"، ولما فتحت قلبي لكي أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها، لكنني لم أجدها.

وقد أحببت الناس – أحببتهم كثيرًا – والناس في شرعي ثلاثة.

واحد يلعن الحياة، وواحد يباركها، وواحد يتأمل بها، فقد أحببت الأول لتعاسته، والثاني لسماحته، والثالث لمداركه.

هكذا انقضت الخمس وعشرون سنة، وهكذا ذهبت أيامي ولياليَّ متسارعة، متتابعة، متساقطة من حياتي، مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف. واليوم، قد وقفت متذكرًا، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة، أنظر إلى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتي أثرًا أستطيع أن أومئ إليه أمام وجه الشمس قائلًا: "هذا لي" ولا أجد لفصول أعوامي غلة سوى أوراق مخضّبة بقطرات الحبر السوداء ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطًا وألوانًا متباينة متناسقة في هذه الأوراق المنثورة والرسوم المبعثرة، قد كفنت ودفنت عواطف وأفكاري وأحلامي، مثلما يدفن الزارع البذور في بطن الأرض، ولكن الزارع الذي يخرج إلى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود إلى بيته في المساء آملًا راجيًا منتظرًا أيام الحصاد والاستغلال.

أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل، ولا رجاء، لا انتظار.

والآن، وقد بلغت هذه المرحلة من العمر، فتراءى لي الماضي من وراء ضباب التنهيد والأسى، وبان لناظري المستقبل من وراء نقاب

الماضي، أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلور نافذتي، وأرى وجوه الناس وأسمع أصواتهم متصاعدة إلى الفضاء، وأعي وقع أقدامهم بين المنازل، وأشعر بملامس أرواحهم وتموجات أميالهم ونبضات قلوبهم أنظر، فأرى الأطفال يلعبون ويتراكضون ويذرون التراب بعضهم في وجوه بعض ضاحكين مقهقهين، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رءوسهم كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشي العيون المبطنة بأشعة الشمس، وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالأغصان ويتبسمن كالأزهار وينظرن إلى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبي الظهور، متوكئين على العصي محدقين بالأرض كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها، أقف بجانب نافذتي وأنظر متأملًا لجميع هذه الصور والأشباح الساكنة بمسيرها، المتطايرة بدبيبها في شوارع المدينة وأزقتها، ثم أنظر متأملًا بما وراء المدينة، فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب، والسكينة المتكلمة، والتلول الباسقة، والأودية المنخفضة، والأشجار النامية، والأعشاب المتمايلة، والأزهار المعطرة، والأنهار المترنمة، والأطيار المغردة، ثم أنظر إلى ما وراء البرية، فأرى البحر بكل ما في أعماقه من الغرائب والعجائب والمدافن والأسرار، وما على سطحه من الأمواج المزبدة، الغضوبة، المتسارعة، المتهاونة، والأبخرة المتصاعدة، المتبددة، المتساقطة، ثم أنظر متأملًا بما وراء البحر، فأرى الفضاء غير المتناهي بكل ما فيه من العوالم السابحة، والكواكب اللامعة، والشموس والأقمار، والسيارات والثوابت، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة،

المتنازعة، المتولدة، المتحولة، المتماسكة بناموس لا حد له ولا مدى، الخاضعة لشرع كلي ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية، أنظر وأتأمل جميع هذه الأشياء من خلال بلور نافذتي فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الأجيال وما سيأتي بعدها من قرون، ويظهر لي كياني ومحيطي بكل ما أخفاه وأعلنه كذرة من تنهدة طفل ترتجف في خلاء أزلي الأعماق، لسرمدي العلو، أبدي الحدود، لكني أشعر بكيان هذه الذرة – هذه النفس – هذه الذات التي أدعوها "أنا" أشعر بحراكها وأسمع ضجيجها، فهي ترفع الآن أجنحتها نحو العلا وتمد يديها إلى كل ناحية، وتتمايل مرتعشة في مثل اليوم الذي أبانها للوجود، وبصبوط متصاعد من قدس أقداسها، تصرخ قائلة: "سلام أيتها الحياة، سلام أيتها اليقظة، سلام أيتها الرؤيا، سلام أيها النهار الغامر بنورك ظلمة الأرض، وسلام أيها الليل المظهر بظلمك أنوار السماء، سلام أيتها الفصول، سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الأرض، سلام أيها الصيف المذيع مجد الشمس، سلام أيها الخريف الواهب ثمار الأتعاب وغلة الأعمال، سلام أيها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة، سلام أيتها الأعوام الناشرة ما أخفته الأعوام، سلام أيتها الأجيال المصلحة ما أفسدته الأجيال، سلام أيها الزمن السائر بنا نحو الكمال، سلام أيها الروح الضابط أعنة الحياة، المحجوب عنا بنقاب الشمس، وسلام لك أيها القلب، لأنك تستطيع أن تهْدَ بالسلام وأنت مغمور بالدموع، وسلام لك أيتها الشفاه، لأنك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرار".

بالأمس

كـان لـي بـالأمس قلـب فقضـى وأراح النـــاس منـــه واســـتراح

ذاك عهـد مـن حيـاتي قـد مضـى بـــين تشـــبيب وشـــكوى ونـــواح

إنمـا الحـب كـنجم فـي الفضـا نـــوره يُمْحـــى بـــأنوار الصـــباح

وسـرور الحـب وهـم لا يطـولُ وجمـــال الحـــب ظـــل لا يقـــيمُ

وعهـود الحـب أحـلام تـزول عنـــدما يســـتيقظ العقـــل الســـليم

***

كم سهرتُ الليل والشوق معي ســــاهر أرقيـــه كـــي لا أنـــام

وخيال الوجد يحمي مضجعي قـــائلًا "لا تـــدن؛ فـــالنوم حـــرام"

وسـقامي هـامس فـي مسـمعي "من يريد الوصلَ لا يشكو السقام"

تلـك أيـام تفضـت، فابشـري يـــا عيـــوني، بلقـــا طيـــف الكـــرى

واحـذري يـا نفـس، ألاَ تـذكري ذلـــك العهـــد ومـــا فيـــه جـــرى

كنتُ إن هبَّت نسيمات السحر   أتـــلوى راقصًـــا مـــن مرحـــي

وإذا مـا سـكب الغـيم المطـر   خلتـــه الـــراحَ فـــأملى قـــدحي

وإذا البـدر علـى الأفـق ظهـر   وهي قربى صحتُ "هلا يستحي"

كـل هـذا كـان بـالأمس، ومـا   كـان بـالأمس تـولى كالضـباب

ومحـا السـلوان ماضـيَّ كمـا   تفـرط الأنفـاسُ عقـدًا مـن حبـاب

***

يـا بُنـيَ إذا جـاءت سـعاد   تسـأل الفتيـان عـن صـب كئيـب

فاخبروهـا أن أيـام البعـاد   أخمـدت مـن مهجتـي ذاك اللهيـب

ومكـانَ الجمـر قـد حـل الرمـاد   ومحـا السـلوان آثـار النحيـب

فـإذا مـا غضـبت لا تغضـبوا   وإذا ناحـت فكـوني مشـفقين

وإذا مـا ضـحكت لا تعجبـوا   أن هـذا شـأن كـل العاشـقين

***

ليت شعري! هل لما مر رجوع   أو معـــاد لحبيـــب وأليـــف؟

هل لنفسي يقظة بعد الهجوع لتريني وجه ماضيَّ المخيف؟

هل يعي أيلول(٢) أنغام الربيع وعلى أذنيه أوراق الخريف؟

لا، فلا لقلبي أو نشور لا، ولا يخضر عود المحملِ

ويد الحصاد لا تحيي الزهور بعد أن تُبرى بحد المنجل

***

شلخت الروح بجسمي وغدت لا ترى غير خيالات السنين

فإذا الأميال في صدري مشت فبعكاز اصطباري تستعين

والتوت مني الأماني وانحنت قبل أن أبلغ حدَّ الأربعين

تلك حالي فإذا قالت رحيل "ما عسى حلّ به ؟" قولوا – "الجنون"

واذا قالت "أيشفى ويزول ما به" قولوا "ستشفيه المنون"

---

[٢]) شهر سبتمبر

مناجاة أرواح

استيقظي يا حبيبتي؛ استيقظي لأن روح تناديك من وراء الأبحار الهائلة، ونفسي تمد جنحيها نحوك فوق الأمواج المزبدة الغضوبة، استيقظي، فقد سكنت الحركة وأوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين وعانق النوم أرواح البشر، فبقيت وحدي مستيقظًا، لأن الشوق ينتشلني كلما أغرقني النعاس، والمحبة تدنيني إليك عندما تقصيني الهواجس، قد تركت مضجعي يا حبيبتي خوفًا من خيالات السلو المختبئة بين طيات اللحف ورميت بالكتاب، لأن تأوهي قد أباد السطور من صفحاته، فأصبحت خالية بيضاء أمام عيني، استيقظي! استيقظي يا حبيبتي واسمعيني.

- ها آنذا يا حبيبتي قد سمعت نداءك من وراء الأبحار وشعرت بملامس جناحيك، فانتبهت وتركت مخدعي وسرت على الاعشاب، فتبللت قدماي وأطراف ثوبي من ندى الليل، ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبتي:

- تكلمي يا حبيبتي، ودعي أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوي من أودية لبنان، تكلمي فلا سامع غيري، لأن الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات إلى أوكارها، والنعاس أسكر سكان المدينة وبقيت وحدي صاحيًا.

قد نسجت السماء نقابًا من أشعة القمر وألفته على جسد لبنان يا حبيبتي.

- قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداءً كثيفًا مبطنًا بدخان المعامل وأنفاس الموت وسترت به أضلع المدينة يا حبيبتي.

- قد رقد سكان القرى في أكواخهم القائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مراسح الأحلام يا حبيبتي.

- قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم، وأثقلت المتاعب أجفانهم، فارتموا على الفرش وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتي.

***

- قد سرت في الأودية خيالات الأجيال الغابرة، وحامت أطياف القديسين والأنبياء، فانثنت فكرتي نحو مسارح الذكرى وأرتني عظائم الكلدانيين وفخامة الآشوريين ونبالة العرب.

- قد سرت في الأزقة أرواح اللصوص القاتمة، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعي الشهوات، وجرت في منعطفات الشوارع أنفاس الأمراض ممزوجة بلهاث المنايا، فأزاحت الذكرى ستائر النسيان وأرتني مكاره صادوم وآثام عاموره.

- قد تمايلت الأغصان يا حبيبتي وتحالف حفيفها مع خرير ساقية الوادي ورددت على مسامعي نشيد سليمان ورنات قيثارة داود وأغاني الموصلي.

- قد ارتعشت نفوس أطفال الحي وأقلقهم الجوع، وتسارعت تنهدات الأمهات المضطجعات على أسرة الهم واليأس، وأراعت أحلام العوز قلوب الرجال المقعدين، فسمعت نواحًا مرًا وزفيرًا متقطعًا يملأ الضلوع ندبًا ورثاء.

***

- قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثم تمازجت بأنفاس الأرز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشبعة والممرات الملتوية، فملأت النفس انعطافًا ومنحتها حنينًا إلى الطيران.

- قد تصاعدت روائح الأزقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهواء.

***

- ها قد جاء الصباح يا حبيبتي وداعبت أصابع اليقظة أجفان النيام وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الجبل وأزالت غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي وترنمت أجراس الكنائس وملأت الأثير نداء مستحبًا معلنة بدء

صلاة الصباح، فأرجعت الكهوف صدى رنينها، كأن الطبيعة بأسرها قامت مصلية، قد غادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعي رءوس الأعشاب المتلمعة بقطر الندى ومشى أمامها الرعاة ينفخون الربابات ووراءها الصبايا المتهللات مع العصافير بقدوم الصباح.

- قد جاء الصباح يا حبيبتي وانبسطت فوق المنازل المكردسة أكف النهار الثقيلة، فأزيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الأبواب، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة، وذهب التعساء إلى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف، كأنهم منقادون قهرًا إلى عراك هائل مهلك، ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي الدواليب وعويل البخار، وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوي الضعيف ويستأثر الغني الظلوم بأتعاب الفقير المسكين.

***

- ما أجمل الحياة ها هنا يا حبيبي، فهي مثل قلب الشاعر المملوء نورًا ورقة.

- ما أقسى الحياة ها هنا يا حبيبتي، فهي مثل قلب المجرم المفعم بالإثم والمخاوف.

يا صاحبي

يا صاحبي: أنا لست كما أظهر لديك، وما مظاهري سوى رداء دقيق الصنع محوك من خيوط التساهل والحسنى ألتف به ليدرأ عني تطفلك ويحميك من إهمالي، أما الذات الخفية التي أدعوها "أنا" فهي سر عميق غامض مستتر وراء جدران السكون وسيبقى غامضًا مستترًا معتصمًا إلى الأبد.

يا صاحبي: أود أن لا تصدق ما أقول وأن لا تثق بما أفعل لأن كلماتي ليست سوى صدى أفكارك ومآتيَّ ليست سوى رسوم آمالك.

يا صاحبي: لما تقول لي "الريح تهب شرقًا" أجيبك بقولي "أي" فهي "تهب شرقًا" لأنني لا أريد أن تعلم أن أفكاري لا تسبح مع الريح بل تهبط وتتصاعد على أمواج البحر وأنت قاصر بطبيعة أفكاري المرفرفة فوق البحار، وأنا لا أستطيع أن أبين لك كنه تلك الأفكار، ولو استطعت لما فعلت لأنني أوثر أن أسبح في البحر وحدي.

يا صاحبي: لما تكون في ظهيرة نهارك أكون في منتصف ليلي، ومع ذلك فأنا أحدثك من وراء حجاب الدجى عن الشمس في الطفل وعن أشعتها الذهبية الراقصة فوق قمم الجبال وعن الطفل الظليل الذي يسترق خطواته في الأودية الخضراء، أحدثك عن هذه الأمور لأنك لا تستطيع أن تسمع ألحان ظلمتي ولا تقدر أن ترى خفقان جناحيَّ بين

الكواكب، وأنا لا أريدك أن تسمع أو ترى لأنني أوثر أن أبقى مع الليل وحدي.

يا صاحبي: لما تصعد أنت إلى جنتك أنحدر أنا إلى جحيمي، وحتى في جحيمي أسمعك تناديني من وراء الهاوية الهائلة التي تفصلنا قائلًا "يا صاحبي، يا رفيقي" فأجيبك هاتفًا "يا رفيقي، يا صاحبي" لأنني أضن بجحيمي من أن يقع عليه بصرك وأخشى من لهيبه أن يلتهم النور في عينيك ومن دخانه أن يسد منخريك، أما أنا فمولع بجحيمي وأوثر أن تبقى بعيدًا عنه لأني أريد أن أكون في الجحيم وحدي.

يا صاحبي: أنت تعشق الحق والجمال والفضيلة، وأنا لأجلك أقول أنه يليق بالانسان أن يحب هذه الأشياء، ولكنني أضحك في قلبي من حبك، وأستر عنك ضحكي لأني أفضل أن أضحك وحدي.

يا صاحبي: أنت صديق وحكيم ومترو، لا بل أنت كامل، وأنا أحاول أن أخاطبك بحكمة وترو، غير أنني مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه أنت إلى عالم غريب وبعيد، لكنني أستر عنك جنوني لأنني أفضل أن أكون مجنونًا وحدي.

يا صاحبي: أنت لست صاحبي فكيف أجعلك أن تدرك ذلك؟ طريقك ليست طريقي ولكننا نسير معًا يدًا بيد.

مات أهلي

مات أهلي وأنا على قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي.

مات أحبائي، وقد أصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم.

مات أهلي وأحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي، وأنا ههنا أعيش مثلما كنت عائشًا عند ما كان أهلي وأحبائي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس.

مات أهلي جائعين، ومن لم يمت منهم جوعًا قضي بحد السيف، وأنا في هذه البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون للأيام والأيام تضحك لهم.

مات أهلي أذل ميتة، وأنا ههنا أعيش في رغد وسلام، وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح نفسي.

لو كنت جائعًا بين أهلي الجائعين، مضطهدًا بين قومي المضطهدين لكانت الأيام أخف وطأة على صدري والليالي أقل سوادًا أمام عيني، لأن من يشارك أهله بالأسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الاستشهاد، بل يفتخر بنفسه لأنه يموت بريئًا مع الأبرياء.

ولكني لست مع قومي الجائعين، المضطهدين، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة وخمول السلامة، أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن أفتخر بشيء حتى ولا بدموعي.

وماذا عسى يقدر المنفي البعيد أن يفعل لأهله الجائعين، ليت شعري، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه، لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحباتي يد الموت عن نفسه.

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعامًا. لو كنت طائرًا في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظل القبر عن جسده.

ولكن، واحرّ قلباه، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا، ولا بثمرة يانعة في أودية لبنان، وهذه هي نكبتي، هذه هي نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيرًا أمام نفسي وأمام أشباح الليل.

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبل يديَّ ثم توقفني بلا عزم، ولا إرادة، ولا عمل.

***

يقولون لي: ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم، وما الدموع والدماء التي أهرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلًا ونهارًا في أودية الأرض وسهولها.

نعم، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء، نكبة بلادي جريمة حبلت بها رؤوس الأفاعي والثعابين، نكبة بلادي مأساة بغير أناشيد ولا مشاهد.

لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعًا متمردين لقلت أن الموت في سبيل الحرية لأشرف من الحياة في ظلال الاستسلام، ومن يعتنق الأبدية والسيف في يده كان خالدًا بخلود الحق.

لو اشتركت أمّتي بحرب الأمم وانقرضت عن بكرة أبيها في ساحة القتال لقلت هي العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الأغصان الخضراء واليابسة معًا، والموت تحت أقدام العواصف لأشرف منه بين ذراعي الشيخوخة.

ولو زلزلت الأرض زلزالها وقبلت ظهر بلادي صدرًا وغمر التراب أهلي وأحبائي لقلت هي النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق البشر فمن الجهالة أن نحاول إدراك أسرارها وخفاياها.

ولكن لم يمت أهلي متمردين، ولا هلكوا محاربين، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين. مات أهلي على الصليب، ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة بسواد الفضاء.

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم.

ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجبناء، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين.

ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين.

ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين.

ماتوا لأنهم كانوا مسالمين.

ماتوا جوعًا في الأرض التي تدر لبنًا وعسلًا.

ماتوا لأن الثعبان الجهنمي قد التهم كل ما في حقولهم من المواشي وما في أهرائهم من الأقوات.

ماتوا لأن الأفاعي أبناء الأفاعي قد تنفسوا السموم في الفضاء الذي كانت تملؤه أنفاس الأرز وعطور الورود والياسمين.

مات أهلي وأهلكم، أيها السوريون، فماذا نستطيع أن نفعل لمن لم يمت منهم؟.

إن نواحنا لا يسد رمقهم، ودموعنا لا تروي غليلهم، إذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدة؟ هل نبقى مرتابين، مترددين، متكاسلين، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها؟

إن العاطفة التي تجعلك، يا أخي السوري، أن تعطي شيئًا من حياتك لمن يكاد أن يفقد حياته هي الأمر الوحيد الذي يجعلك حريًا بنور النهار وهدوء الليل.

وإن الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة إليك هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية.

***

أغنية الليل

سكن الليل، وفي ثوب السكون تختبـــــي الأحــــلام

وســعى البــدر، وللبــدر عيــون ترصـــــد الأيـــــام

فتعــالي، يــا ابنــة الحقــل، نــزور كرمـــــة العشـــــاق

علنــا نطفــي بــذياك العصــير حرقـــــة الأشـــــواق

اســمعي البلبــل مــا بــين الحقــول يســـــكب الألحـــــان

فــي فضــاء نفخــت فيــه التلــول نســـــمة الريحـــــان

لا تخــافي، يــا فتــاتي، فــالنجوم تكـــــتم الأخبـــــار

وضــباب الليــل فــي تلــك الكــروم يحجـــــب الأســـــرار

لا تخــافي، فعــروس الجــن فــي كهفهـــــا المســـــحور

هجعــت ســكرى وكــادت تختفــي عـــــن عيـــــون الحـــــور

ومليـــك الجـــن إن مـــرَّ يـــروح والهـــــوى يثنيـــــه

فهـو مثلـي عاشـق كيـف يبـوح بالـــــــذي يضـــــــنيه

صفحة من المواكب

والدين في الناس حَقلٌ ليس يزرعهُ غيـر الأُولـى لهـمُ فـي زرعـه وطـرُ

مـن آمـلٍ بنعـيم الخلـدِ مبتشـرٍ ومـن جهـول يخـافُ النـارَ تسـتعرُ

فالقومُ لولا عقاب البعثِ ما عبدوا ربَّـا ولـولا الثـواب المرتجـى كفـروا

كأنمـا الـدينُ ضـربًا مـن متـاجرهمْ إن واظبـوا ربحـوا أو أهملـوا خسـروا

***

صفحة من المواكب

ليس في الغابات دينٌ

لا ولا الكفرُ القبيحْ

فإذا البلبلُ غنى

لم يقل هذا الصحيحْ

إن دين الناس يأتي

مثلَ ظلٍّ ويروح

لم يقمْ في الأرض دينٌ

بعد طه والمسيح

أعطنـــــي النـــــاي وغـــــنِّ فالغنـــــا خيـــــرُ الصـــــلاة

وانـــــينُ النـــــاي يبقـــــى بعـــــد أن تفنـــــى الحيـــــاة

أيتها الأرض

ما أجملك أيتها الأرض وما أبهاك.

ما أتم امتثالك للنور وأنبل خضوعك للشمس.

ما أظرفك متشحة بالظل وما أملح وجهك مقنعًا بالدجى.

ما أعذب أغاني فجرك وما أهول تهاليل مسائك.

ما أكملك أيتها الأرض وما أنساك.

لقد سرت في سهولك، وصعدت على جبالك، وهبطت إلى أوديتك، وتسلقت صخورك، ودخلت كهوفك، فعرفت حلمك في السهل، وأنفتك على الجبل، وهدوءك في الوادي، وعزمك في الصخر، وتكتمك في الكهف، فأنت أنت المنبسطة بقوتها، المتعالية بتواضعها، المنخفضة بعلوها، اللينة بصلابتها، الواضحة بأسرارها ومكنوناتها.

لقد ركبت بحارك، وخضت أنهارك، وتتبعت جداولك فسمعت الأبدية تتكلم بمدك وجزرك، والدهور تترنم بين هضابك وحزونك، والحياة تناجي الحياة في شعابك ومنحدراتك، فأنت أنت لسان الأبدية وشفاهها، وأوتار الدهور وأصابعها، وفكرة الحياة وبيانها.

لقد أيقظني ربيعك وسيَّرني إلى غاباتك حيث تتصاعد أنفاسك بخورا، وأجلسني صيفك في حقولك حيث يتجوهر إجهادك إثمارًا، وأوقفني خريفك في كرومك حيث يسيل دمك خمرا، وقادني شتاؤك إلى مضجعك حيث يتناثر طهرك ثلجا، فأنت أنت العطرة بربيعها الجوّادة بصيفها الفياضة بخريفها، النقية بشتائها.

في الليلة الصافية قد فتحت نوافذ نفسي وأبوابها وخرجت إليك مثقلًا بمطامعي مكبلًا بقيود أنانيتي فألفيتك شاخصة بالكواكب وهي تبتسم لك، فنزعت عني قيودي وأثقالي وعلمت أن منزل النفس فضاؤك، ورغائبها في رغائبك، وسلامتها في سلامتك، وسعادتها في الغبار الذهبي الذي تنثره النجوم على جسدك.

في الليلة المبطنة بالغيوم، وقد مللت غفلتي وجمودي خرجت إليك فوجدتك جبارة هائلة مسلحة بالعاصفة، تحاربينَ ماضيك بحاضرك، وتصرعين قديمك بجديدك، وتبعثرين ضئيلك بضليعك، فعلمت أن نظام البشر نظامك، وناموسهم ناموسك، وسنتهم سنتك، وإن من لا يهصر بأرياحه ما يبس من أغضانه يموت مللًا، ومن لا يمزق بثوراته ما يلي من

أوراقه يفنى خمولًا، ومن لا يكفن بالنسيان ما مات من ماضيه كان هو كفنا لمآتي الماضي.

***

ما أكرمك أيتها الأرض وما أطول أناتك.

ما أشد حنانك على أبنائك المنصرفين عن حقيقتهم إلى أوهامهم، الضائعين بين ما بلغوا إليه وما قصروا عنه.

نحن نضج وأنت تضحكين.

نحن نذنب وأنت تكفرين.

نحن نجدف وأنت تباركين.

نحن ننجس وأنت تقدسين.

نحن نهجع ولا نحلم وأنت تحلمين في سهرك السرمدي.

نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح وأنت تغرمين كلومنا بالزيت والبلسم.

نحن نزرع راحاتك العظام والجماجم وأنت تستنبينها حورا وصفصافا.

نحن نستودعك الجيف وأنت تملأين بيادرنا بالإغمار ومعاصرنا بالعناقيد.

نحن نصبغ وجهك بالدم وأنت تغسلين وجوهنا بالكوثر.

نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وأنت تتناولين عناصرنا وتكونين منها الورود والزنابق.

ما أوسع صبرك أيتها الأرض وما أكثر انعطافك ما أنت أيتها الأرض ومن أنت؟

أذرة من الغبار تصاعدت من بين قدمي الله عند ما سار من مشارق الأكوان إلى مغاربها، أم شرارة قذفت من موقد اللا نهاية.

أنواة طرحت في حقل الأثير لتشق قشرتها بعزم لبابها وتتعالى نصبة ربانية إلى ما فوق الاثير؟

أقطرة من الدم في عروق جبار الجبابرة، أم أنت قطرة من العرق على جبينه؟

أثمرة تلوحها الشمس ببطء؟ أثمرة أنت في شجرة المعرفة الكلية التي تمد عروقها إلى أعماق الأزل وترفع غصونها إلى الأبد؟ أم جوهرة أنت وضعتها آلة الزمن في حفنة إِلهة المسافة؟

أطفلة أنت في حضن الفضاء، أم عجوز ترقب الأيام والليالي وقد شبعت من حكمة الليالي والأيام؟

ما أنت أيتها الأرض ومن أنت؟

أنت أنا أَيتها الأرض! أنت بصري ويصيرتي، أنت عاقلتي وخيالي وأحلامي، أنت جوعي وعطشي، أنت ألمي وسروري، أنت غفلتي وانتباهي.

أنت الجمال في عينيَّ، والشوق في قلبي، والخلود في روحي.

أنت أنا أيتها الأرض فلو لم أكن لما كنت.

***

السم في الدسم

في صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التي تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية اجتمع سكان قرية تولا حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ويتبادلون الآراء في سفر فارس الرحَّال الفجائي إلى مكان قصي لا يعلم به غير الله تاركًا عروسته الصبية التي تزوج بها منذ ستة أشهر.

كان فارس الرحَّال شيخ القرية وزعيمها، وقد ورث هذه المنزلة عن أبيه وجده، ومع أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره؛ فقد كان في

شخصيته ما يوعز على الاحترام والوقار في قلوب مواطنيه، وعندما اقترن في أواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس: ما أسعده فتى! فهو قد حصل قبل أن يبلغ على كل ما يتمناه الإنسان من السعادة في الحياة الدنيا.

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا وقيل لهم أن الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودع نسيبًا أو صديقًا تعاظمت ظنونهم وأخذوا يتساءلون عن الأسباب الخفية التي جعلته يتركهم ويترك عروسه ومنزله وحقوله وكرومه.

إن الحياة في شمالي لبنان أقرب إلى الاشتراكية منها إلى كل تعليم آخر، فالقوم هناك يتساهمون أفراح الوجود وشدائده مدفوعين بأميال فطرية وضعية، فإذا ما جاءت الأيام بحادث إلى قرية ينصرف سكانها بكليتهم إلى استقصاء ذلك الحادث حتى تجيء الأيام إليهم بأمر آخر.

تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن أعمالهم اليومية فاجتمعوا حول كنيسة مارتولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء بسفر فارس الرحَّال.

وبينما هم على هذه الحالة وإذا بالخوري اسطفان كاهن القرية يقترب منهم منحني الرأس منقبض الملامح، فدنوا منه مستطلعين فظل ساكتًا يفرك يدًا بيد وبعد هنيهة قال:

- لا تسألوني.. لا تسألوني، كل ما أعرفه يا أبنائي هو هذا، قرع فارس باب منزلي قبل طلوع الفجر، ولما فتحت له وجدته متمسكًا بمقود فرسه وعلى وجهه أمارات الحزن الشديد فسألته مستغربًا عما يريد فقال "جئت لأودعك يا أبتي، فأنا مسافر إلى ما وراء البحار ولن أعود إلى هذه البلاد وأنا حي" ثم وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك، وطلب إليّ أن أسلمها إليه يدًا بيد، فعل هذا واعتلى فرسه وراح مسرعًا قبل أن استوضح أمره، هذا كل ما أعرفه، فلا تسألوني الزيادة.

فقال أحد الواقفين:

- لا شك أن في الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره لأن نجيب مالك كان أعز صديق له في القرية.

وقال آخر:

- وهل رأيت عروسه يا أبتاه؟

فأجاب الكاهن:

- قد زرتها بعد صلاة الصباح تنظر إلى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت إدراكها ولما سألتها هزت رأسها وقالت "لا أدري، لا أدري" ثم طفقت تبكي وتنتحب كالأطفال.

ولم ينته الكاهن من كلامه إلا وذعر القوم حوله لطلق بندقية من الوجهة الشرقية من القرية، ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء، فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساء ورجالا وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم، ولما بلغوا البستان الذي يحيط بمنزل فارس الرحَّال شاهدوا هنالك منظرًا أجمد الدم في عروقهم والفكرة في رؤوسهم؛ رأوا نجيب مالك منطرحًا على التراب والنجيع يتدفق من أمعائه، وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزق أثوابها وتصرخ متوجعة: "قد قتل نفسه، قد أطلق البندقية في صدره".

فبهت القوم كان أكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على أرواحهم، ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد في يمينه الرسالة التي كان قد سلمه إياها في ذلك الصباح، وقد قبض عليها بشدة كأنه يريد أن يجعلها جزءًا من أصابعه فتناولها الكاهن ووضعها في جيبه دون أن يراه أحد ثم تراجع إلى الوراء لاطمًا وجهه.

وحمل القوم جثة المنتحر إلى ببيت والدته المسكينة التي لم تر جثة وحيدها حتى فقدت عقلها، واهتم بعض النساء بزوجة فارس الرحَّال فاقتادوها إلى منزلها بين حية وميتة.

***

ولما بلغ الخوري اسطفان منزله أوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلًا الرسالة التي وجدها في يد نجيب مالك وبصوت مرتعش أخذ يقرأ:

"أخي نجيب أنا تارك هذه القرية لأن وجودي فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتي ولي أيضًا، أنا أعلم بأنك شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك، وأعلم أن زوجتي سوسان طاهرة الذيل، ولكنني أعلم في الوقت نفسه أن الحب الذي يضم قلبك وقلبها هو أمر فوق إرادتكما، فأنت لا تستطيع إزالته كما أنك لا تقدر أن توقف مجاري نهر قاديشا، لقد كنت صديقًا لي يا نجيب مذ كنا صبيين نلعب في الحقول وفي ساحة الكنيسة، وأنت لم تزل صديقي أمام الله وأرجوك أن تفتكر بي في المستقبل مثلما كنت تفتكر بي في الماضي، وإذا التقيت بسوسان غدًا أو بعده فقل لها أني أحبها وأرحمها، وقل لها أيضًا أني كنت أذوب شفقة عندما كنت أستيقظ في سكينة الليل وأراها راكعة أمام صورة يسوع تبكي وتنتحب وتجلد صدرها، ليس أصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه، وسوسان المسكينة كانت في حرب دائم، كانت تريد أن تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن قادرة على قتل عواطفها، أما أنا فمسافر إلى مكان بعيد ولن أعود إلى هذه الديار لأني لا أريد أن أكون حجر عثرة في سبيل سعادتكما، وفي الختام أرجوك يا أخي أن تبقى مخلصًا لسوسان، وأن تحافظ عليها حتى النهاية لأنها قد ضحت بكل شيء من أجلك، فهي تستحق كل ما يستطيع

الرجل أن يقدم للمرأة، ابق يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس والله يحفظك لأخيك فارس الرحَّال".

ولما انتهي الخوري اسطفان من قراءة الرسالة طواها وأعادها إلى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر إلى الوادي البعيد وعلى وجهه المتجعد أمارات التفكر العميق، ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا أفكاره سرًا دقيقًا هائلًا محجوبًا بالظواهر ملتفًا بالسطحيات، فهتف صارخًا: "ما أكثر دهاءك يا فارس الرحَّال، فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئًا من دمه، قد بعثت إليه بالسم ممزوجًا بالعسل، قد بعثت إليه بالسيف ملتفًا بالحرير، قد بعثت إليه الموت طي الرسالة، فعندما صوب بندقية إلى صدره كانت يدك قابضة على يده وإرادتك محيطة بإرادته.. أواه ما أكثر دهاءك يا فارس الرحَّال"...

وعاد الخوري بولس فجلس على المقعد هازًا رأسه ممشطًا لحيته بإصابعه مبتسمًا ابتسامات ذات معان أشد هولا من المأساة، وبعد هنيهة تناول كتابًا من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس إفرام السرياني، وهو يرفع عينيه بين الآونة والأخرى ليسمع صراخ النساء آتيًا من قلب القرية.

***

- "هو متطرف بمبادئه حتى الجنون"

- "هو خيالي يكتب ليفسد أخلاق الناشئة"

- "لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيمًا وسكانه شياطين"

- "قهرًا عما لأسلوبه الكتابي من الجمال فهو من أعداء الإنسانية"

- "هو فوضوي كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هذا الجبل المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء على نفوسهم"

- "قد قرأنا له الأجنحة المتكسرة فوجدناها السم في الدسم"

هذا بعض ما يقوله الناس عني وهم مصيبون، فأنا متطرف حتى الجنون، أميل إلى الهدم ميلي إلى البناء، وفي قلبي كره لما يقدسه الناس وحب لما يأبونه، ولو كان بإمكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة، أما قول بعضهم أن كتاباتي سم في دسم فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف؛ فالحقيقة العارية هي أنني أسكبه في كؤوس نظيفة شفافة.

أما الذين يعتذرون عني أمام نفوسهم قائلين "هو خيالي يسبح مرفرفًا بين الغيوم" فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما في داخلها من الشراب الذي يدعونه "سما" لأن معدهم الضعيفة لا تهضمه.

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها؟ إن الوقاحة تظهر نفسها بنفسها أما الخباثة لترتدي بملابس فصلت لغيرها.

***

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التي تطوف مرفرفة في الحقول جامعة حلاوة الأزهار لتصنع منها أقراصًا من العسل. إن الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيبون سواه مأكلًا وقد أفرطوا بالتهامه حتى تحولت نفوسهم إلى عسل تسيل أمام النار ولا تتجمد إلا إذا وضعت على الثلج.

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخورًا أمام سلاطينهم وحكامهم وبطاركتهم، وقد تلبد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنهم لا يكتفون، ففي أيامنا هذه مداحون يضارعون المتنبي، وراثون يضاهون الخنساء، ومهنئون أكثر طلاوة من صفي الدين الحلي.

ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث في تاريخ آبائهم وجدودهم، متعمقًا بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفًا أيامه ولياليه بين مطولات لغاتهم واشتقاقات ألفاظهم ومباني معانيهم وبيانهم وبديعهم.

ويطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد مسامعهم ما قاله بيدبا وابن رشد وإفرام السرياني ويوحنا الدمشقي، وأن لا يتعدى بكتاباته حدود الوعظ البليد والإرشاد السقيم وما يجيء بينهما من الحكم والآيات التي إذا ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالأعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ونفسه كالماء الفاتر الممزوج بقليل من الأفيون.

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي المغاير ويميلون إلى الأمور السلبية المسيلة المفكهة ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة.

***

إنما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم وألف الألم وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة فمن كان خاليًا منها عد ناقصًا محرومًا من المواهب والكمالات العلوية. وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون في شأنه ولكنهم لا يداوونه بغير المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها.

أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الأنواع معددة الأشكال متباينة الألوان، وقد تولد بعضها من بعض مثلما تناسخت الأَمراض والعاهات بعضها عن بعض، وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدرًا جديدًا.

وأما الأسباب التي آلت إلى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل إلى فلسفة القضاء والقدر المشهورة، وجبانة الأطباء وخوفهم من تهييج الألم الذي تحدثه الأدوية الناجعة، وإليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض العائلية والوطنية والدينية.

ينفر الرجل من زوجته، والمرأة من بعلها لأسباب وضيعة حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ولكن لا يمر يوم وليلة حتى يجتمع أهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلون الآراء المزخرفة والأفكار المرصعة ثم يتفقون على إيجاد السلام بين الزوجين فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملفقة التي تخجلها ولا تقنعها، ثم يستدعون الرجل ويغمرون رأسه بالأقوال والأمثال المزركشة التي تلين أفكاره ولا تغيرها، وهكذا يتم الصلح – الصلح الوقتي – بين الزوجين المتنافرين بالروح فيعودا قهرًا عن إرادتهما إلى السكنى تحت سقف واحد حتى "يبوخ" الطلاء ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الأهل والأنسباء فيعود الرجل إلى إظهار نفوره ومقته والمرأة إلى إزالة النقاب عن تعاستها، غير أن الذين أوجدوا

الصلح في المرة الأولى يوجدونه ثانية، ومن يرتشف جرعة من المخدرات لا يأبى شرب كأس دهاق.

يتمرد قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون "جمعية إصلاحية" ترمي إلى النهوض والانعتاق فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون "اللوائح والبرامج" ويبعثون "الوفود والممثلين" ولكن لا يمر شهر أو شهران حتى نسمع بأن الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية أو عهدت إليه بوظيفة، أما الجمعية "الإصلاحية" فلا نعود نسمع عنها شيئًا لأن أفرادها قد تجرعوا قليلًا من المخدرات المعهودة وعادوا إلى الكنيسة والاستسلام.

تتمرد طائفة على رئيس دينها لأمور أولية فتنتقد شخصه وتنكر أعماله وتتبرم من مآتيه ثم تهدده باعتناقها مذهبًا آخر أقرب إلى العقل وأبعد عن الأوهام والخرافات، ولكن لا يمر ردح من الزمن حتى نسمع بأن عقلاء البلاد قد أزالوا الخلاف بين الراعي ورعيته وأرجعوا بفضل المخدرات السحرية الهيبة إلى شخص الرئيس والطاعة العمياء إلى نفوس المرؤوسين العقوقين.

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوي فيقول له جاره "اسكت فالعين التي تعاند السهم تفقر"

يشك القروي بتقى الرهبان وإخلاصهم فيقول له زميله "اصمت فقد جاء في الكتاب اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم".

يُعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية فيقول له أستاذه "إن الكسالى المتوازنين يختلقون لنفوسهم أعذارا أقبح من الذنوب"

تمتنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها "ليست الابنة أفضل من أمها فالطريق التي سلكتها تسلكينها أنت أيضًا"

يسأل الشاب مستفسرًا عن معاني الزوائد الدينية فيقول له الكاهن "من لا ينظر بعين الإيمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان".

وهكذا تمر الأيام في أثر الليالي، والشرقي مضطجع على فراشه الناعم، يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث ثم يعود ويهجع جيلًا بحكم المخدرات التي تمازج دمه وتسير في عروقه؛ فإذا ما قام رجل وصرخ بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج يفتحون أجفانهم المطبقة بالنعاس الأبدي ثم يقولون متثائبين "ما أخشنه فتى لا ينام ولا يدع الناس أن يناموا" ثم يغمضون عيونهم ويهمسون في آذان أرواحهم "هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مباني الأجيال ويرشق الإنسانية بالسهام السامة".

***

قد سألت نفسي مرات ما إذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين يأبون شرب المخدرات والمسكنات، فكانت نفسي تجيبني

بكلمات مبهمة ملتبسة، ولكنني لما سمعت الناس يجدفون على اسمي ويتأففون من مبادئي أيقنت بحقيقة يقظتي وعلمت أنني لست من المستسلمين إلى الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبة بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مغروسة بالأشواك والأزهار محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة.

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعني الاحتشام عن ادعائها، ولكنها ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير أمامهم فيتبعونها قسر إرادتهم مجذوبين بأسلاكها الخفية محدقين بمعانيها المهيبة.

وعندي أن الاحتشام في إظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء الأبيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب.

***

غدًا يقرأ "الأدباء المفكرون" ما تقدم فيقولون متضجرين "هو متطرف ينظر إلى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير الظلام وقد طالما وقف فينا نادبًا نائحًا باكيًا علينا متأوهًا لحالنا"

فلهؤلاء الأدباء المفكرين أقول: أنا أندب الشرق لأن الضحك على الأمراض جهل مركب.

أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة العمياء غباوة عمياء.

أنا متطرف لأن من يعتدل بإظهار الحق يبين نصف الحق، ويبقي نصفه الآخر محجوبًا وراء خوفه من ظنون الناس وتقولاتهم.

أنا أرى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسي وتضطرب أحشائي ولا أستطيع أن أجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى.

فإن كان هناك من يريد أن يبدل نوحي بالضحك ويحول اشمئزازي إلى الانعطاف وتطرفي إلى الاعتدال؛ فعليه أن يريني بين الشرقيين حاكمًا عادلًا ومشرعًا مستقيمًا ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجًا ينظر إلى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه.

إن كان هناك من يريد أن يشاهدني راقصًا ويسمعني مطبلًا ومزمرًا فعليه أن يدعوني إلى بيت العريس لا أن يوقفني بين المقابر.

***

مستقبل اللغة العربية[٣] والعالم العربي

(١) ما هو مستقبل اللغة العربية؟

إنما اللغة مظهر من مظاهر قوة الابتكار في مجموع الأمة، أو ذاتها العامة، فإذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها، وفي الوقوف التقهقر، وفي التقهقر الموت والاندثار.

إذًا فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن – أو غير الكائن – في مجموع الأمم التي تتكلم اللغة العربية، فإن كان ذلك الفكر موجودًا كان مستقبل اللغة عظيمًا كماضيها، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتها السريانية والعبرانية.

وما هذه القوة التي ندعوها بقوة الابتكار؟

هي في الأمة عزم دافع إلى الامام، هي في قلبها جوع وعطش وشوق إلى غير المعروف، وهي في روحها سلسلة أحلام تسعى إلى تحقيقها ليلًا نهارًا، ولكنها لا تحقق حلقة من أحد طرفيها إلا أضافت الحياة حلقة جديدة في الطرف الآخر، هي في الأفراد النبوغ وفي

---

[٣]) كانت مجلة الهلال الغراء وجهت هذه الأسئلة للرجال الذين يعول على آرائهم ونحن ننقل رد نابغتنا شاكرين للهلال تفننه في خدمة الأدب العربي.

الجماعة الحماسة، وما النبوغ في الأفراد سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفية في أشكال ظاهرة محسوسة، ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهب لأن العرب كانوا في حالة التأهب، وكان ينمو ويتمدد أيام المخضرمين لأن العرب كانوا في حالة النمو والتمدد، وكان يتشعب أيام المولدين لأن الأمة الإسلامية كانت في حالة التشعب، وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلون فيظهر آنًا كفيلسوف، وآونة كطبيب، وأخرى كفلكي حتى رواد النعاس قوة الابتكار في الأمم العربية فنامت، وبنومها تحول الشعراء إلى ناظمين والفلاسفة إلى كلاميين والأطباء إلى دجالين والفلكيون إلى منجمين.

إذا صح ما تقدم كان مستقبل اللغة العربية رهن قوة الابتكار في مجموع الأمم التي تتكلمها، فإن كان لتلك الأمم ذات خاصة (أو وحدة معنوية) وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربية عظيمًا كماضيها، وإلا فلا.

(٢) وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربية فيها؟

إنما (التأثير) شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها فتمضغه وتبتلعه وتحول الصالح منه إلى كيانها الحي، كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار، ولكن إذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم فالطعام يذهب سدى بل ينقلب سمًا قاتلًا، وكم من شجرة تحتال على الحياة وهي في الظل فإذا

ما نقلت إلى نور الشمس ذبلت وماتت، وقد جاء "من له يعطي ويزداد ومن ليس له يؤخذ منه".

وأما الروح الغربية فهي دور من أدوار الإنسان وفصل من فصول حياته، وحياة الإنسان موكب هائل يسير دائمًا إلى الأمام، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقة تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب: فالأمم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكرة، والمبتكر مؤثر، والأمم التي تمشي في مؤخرته هي المقلدة، والمقلد يتأثر، فلما كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدينتنا التأثير العظيم على لغاتهم، وها قد أصبحوا هم السابقين وأمسينا نحن اللاحقين فصارت مدنيتهم بحكم الطبع ذات تأثير عظيم على لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا.

بيد أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحول إلى كيانهم الشرقي بل يحولهم إلى شبه غربيين، وهي حالة أخشاها وأتبرم منها لأنها تبين لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه وطورًا كطفل بدون أضراس!

إن روح الغرب صديق وعدو لنا، صديق إذا تمكنا منه وعدو إذا تمكن منا، صديق إذا فتحنا له قلوبنا وعدو إذا وهبناه قلوبنا، صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا وعدو إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه.

(٣) وما يكون تأثير التطور السياسي الحاضر في الأقطار العربية؟

فقد أجمع الكتاب والمفكرون في الغرب والشرق على أن الأقطار العربية في حالة التشويش السياسي والإداري والنفسي، ولقد اتفق أكثرهم على أن التشويش مجبلة الخراب والاضمحلال. أما أنا فأسأل: هل هو تشويش أم ملل؟

إن كان مللًا فالملل نهاية كل أمة وخاتمة كل شعب، الملل هو الاختصار في صورة النعاس والموت في شكل النوم.

وإن كان بالحقيقة تشويشًا فالتشويش في شرعي ينفع دائمًا لأنه يبين ما كان خافيًا في روح الأمة ويبدل نشوتها بالصحو وغيبوبتها باليقظة ونظير عاصفة تهز بعزمها الأشجار لا لتقتلعها بل لتكسر أغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء وإذا ما ظهر التشويش في أمة لم تزل على شيء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجود قوة الابتكار في أفرادها والاستعداد في مجموعها، إنما السديم أول كلمة في كتاب الحياة وليس بآخر كلمة منها، وما السديم سوى حياة مشوشة.

إذًا فتأثير التطور السياسي سيحول ما في الأقطار العربية من التشويش إلى نظام، وما في داخلها من الغموض والإشكال إلى ترتيب وألفة، ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة، إن الخزّاف يستطيع أن يصنع من الطين جرة للخمر أو للخل ولكنه لا يقدر أن يصنع شيئًا من الرمل والحصى.

(٤) هل يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم؟

لا يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة، ولن تعلم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية إلى أيدي الحكومات المحلية.

ففي سوريا مثلًا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون، ولقد أحيانا ذلك الخبز، ولما أحيانا أماتنا، أحيانا لأنه أيقظ بعض مداركنا ونبه عقولنا قليلًا، وأماتنا لأنه فرَّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها، فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيرًا فرنسيًا،

والشاب الذي لبس قميصًا من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلًا لروسيا، إلى آخر ما هناك من المدارس وما تخرجه في كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء، وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي، فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الإنكليزية يريدون أمريكا وإنكلترا وصية على بلادهم، والذين درسوها باللغة الفرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم، والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة أدنى وأقرب إلى مداركهم.

وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلًا على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجرًا من جهة واحدة وتهدم جدارًا من الجهة الأخرى؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يومًا وتميتنا دهرًا؟

إن المحسنين الحقيقيين وأصحاب الأريحية لم يضعوا الشوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به إلينا، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا، ولكن كيف تولد ذلك الشوك ومن أين أتى ذلك الحسك؟.. هذا بحث آخر أتركه إلى فرصة أخرى.

نعم سوف يعمم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم فتتوحد ميولنا السياسية وتتبلور منازعنا

القومية لأن في المدرسة تتوحد الميول وفي المدرسة تتجوهر المنازع، ولكن لا يتم هذا حتى يصير الواحد منا ابنًا لوطن واحد بدلًا من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه، لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا، لأن المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب، فالموهوب مسير دائمًا والواهب مخير أبدًا.

(٥) وهل تتغلب "اللغة العربية الفصحى" على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها؟

إن اللهجات العامية تتحور وتتهذب ويدلك الخشن فيها فيلين ولكنها لا ولن تغلب – ويجب ألا تغلب – لأنها مصدر ما ندعوه فصيحًا من الكلام ومنبت ما نعده بليغًا من البيان.

إن اللغات تتبع مثل كل شيء آخر سنة بقاء الأنسب، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب الذي سيبقى لأنه أقرب إلى فكرة الأمة وأدنى إلى مرامي ذاتها العامة، قلت أنه سيبقى، وأعني بذلك أنه سيلتحم بجسم اللغة ويصير جزءًا من مجموعها.

لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامية، ولتلك اللهجات مظاهر أدبية وفنية لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكر، بل في أوروبا وأمريكا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكنوا من التوفيق بين العامي والفصيح في قصائدهم وموشحاتهم فجاءت بليغة ومؤثرة، وعندي أن في الموال والزجل و"العتابا" و"المعنى" من الكنايات المستجدة

والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنضومة بلغة فصيحة، والتي تملأ جرائدنا ومجلاتنا، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب، أو كسرب من الصبايا الراقصات المترنمات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة.

لقد كانت اللغة الإيطالية الحديثة لهجة عامية في القرون المتوسطة، وكان الخاصة يدعونها بلغة "الهمج"، ولكن لما نظم بها دانتي وبترارك وكامونس وفرنسيس داسيزي قصائدهم وموشحاتهم الخالدة أصبحت تلك اللهجة لغة ايطاليا الفصحى وصارت اللاتينية بعد ذلك هيكلًا يسير ولكن في نعش على أكتاف الرجعيّين.. وليست اللهجات العامية في مصر وسوريا والعراق أبعد عن لغة المعري والمتنبي من لهجة "الهمج" الإيطالية عن لغة أوفيد وفرجيل، فإذا ما ظهر في الشرق الأدنى عظيم ووضع كتابًا عظيمًا في إحدى تلك اللهجات تحولت هذه إلى لغة فصحى، بيد أني أستبعد حدوث ذلك في الأقطار العربية لأن الشرقيين أشد ميلًا إلى الماضي منهم إلى الحاضر أو المستقبل، فهم المحافظون على معرفة منهم أو على غير معرفة، فإن قام كبير بينهم لزم في إظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الأقدمون، وما سبل الأقدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده.

(٦) وما هي خير الوسائل لإحياء اللغة العربية؟

إن خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين.

الشاعر أبو اللغة وأمها، تسير حيثما يسير وتربض أينما يريض، وإذا ما قضى جلست على قبره باكية منتحبة حتى يمر بها شاعر آخر ويأخذ بيدها. وإذا كان الشاعر أبو اللغة وأمها فالمقلد ناسج كفنها وحفار قبرها.

أعني بالشاعر كل مخترع كبيرًا كان أو صغيرًا، وكل مكتشف قويًا كان أو ضعيفًا، وكل مختلق عظيمًا كان أو حقيرًا، وكل محب للحياة المجردة إمامًا كان أو صعلوكًا، وكل من يقف متهيبًا أمام الأيام والليالي فيلسوفًا كان أو ناطورًا للكروم. أما المقلد فهو الذي لا يكتشف شيئًا ولا يختلق أمرًا بل يستمد حياته النفسية من معاصريه ويصنع أثوابه المعنوية من رقع يجزها من أثواب من تقدمه.

أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلًا عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد، وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجًا ذا

رسوم وخطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون فيقوم بعده من يدعو نسيجه هذا باسم جديد.

أعني بالشاعر الملاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعًا ثالثًا، والبنَّاء الذي يبنى بيتًا ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة، والصباَّغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها أحد قبله فيستخرج لونًا جديدًا، فيأتي بعد الملاح والبناء والصباغ من يدعو ثمار أعمالهم بأسماء جديدة فيضيف بذلك شراعًا إلى سفينة اللغة ونافذة إلى بيت اللغة ولونًا إلى ثوب اللغة.

أما المقلد فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة ولا يحيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع، ذاك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشى عليها ألف جيل وجيل فتظل حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظل ضئيل لحقيقة قصية لا يعرف عنها شيئًا ولا يريد أن يعرف.

أعني بالشاعر ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكيًا فرحًا نادبًا مهللًا مصغيًا مناجيًا ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم وأنواع انجذابه التي تتغير في كل ليلة فيضيف بعمله هذا وترًا فضيًا إلى قيثارة اللغة وعودًا طيبًا إلى موقدها. أما المقلد فهو الذي يردد صلاة

المصلين وابتهال المبتهلين بدون إرادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية.

أعني بالشاعر ذاك الذي إن أحب امرأة انفردت روحه وتنحت عن سبل البشر لتُلبس أحلامها أجسادًا من بهجة النهار وهول الليل وولولة العواصف وسكينة الأدوية ثم عادت لتضفر من اختباراتها إكليلًا لرأس اللغة، وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة. أما المقلد فمقلد حتى في حبه وغزله وتشبيبه فإن ذكر وجه حبيبته وعنقها قال "بدر وغزال" وإن خطر على باله شعرها وقدها ولحظها قال "ليل وغصن بان وسهام" وإن شكى قال "جفنٌ وفجرٌ بعيدٌ وعذولٌ قريب" وإن شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال "حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتَعض على عُناب أناملها ببرد أسنانها" يترنم صاحبنا الببغاء بهذه الأغنية العتيقة وهو لا يدري أنه يسمم ببلادته دسم اللغة ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالتها.

قد تكلمت عن المستنبط ونفعه والعقيم وضرره، ولم أذكر أولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطولات وتشكيل المجامع اللغوية، لم أقل كلمة عن هؤلاء لاعتقادي بأنهم كالشاطئ بين مد اللغة وجزرها وأن وظيفتهم لا تتعدى حد الغربلة، والغربلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون إذا كانت قوة الابتكار في الأمة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد إلا الهشيم ولا تجمع على بيادرها سوى الشوك والقطرب؟

أقول ثانية أن حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكل ما له علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر.. فهل عندنا شعراء؟.. نعم عندنا شعراء، وكل شرقي يستطيع أن يكون شاعرًا في حقله وفي بستانه وأمام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته، كل شرقي يستطيع أن يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج إلى نور الشمس فيسير في موكب الحياة، كل شرقي يستطيع أن يستسلم إلى قوة الابتكار المختبئة في روحه، تلك القوة الأزلية الأبدية التي تقيم من الحجارة أبناءً لله.

أما أولئك المنصرفون إلى نظم مواهبهم ونثرها فلهم أقول: ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانعًا عن اقتداء أثر المتقدمين فخير لكم وللغة العربية أن تبنوا كوخًا حقيرًا من ذاتكم الوضعية من أن تقيموا صرحًا شاهقًا من ذاتكم المقتبسة، ليكن لكم من عزة نفوسكم زاجرًا عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة فخير لكم وللغة العربية أن تموتوا مهملين محتقرين من أن تحرقوا قلوبكم بخورًا أمام الأنصاب والأصنام، ليكن لكم من حماستكم القومية دافعًا إلى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الألم وعجائب الفرح فخير لكم وللغة العربية أن تتناولوا أبسط ما يتمثل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلة من خيالكم من أن تعرّبوا أجل وأجمل ما كتبه الغربيون.

تذكارات محب [٤]

كنت في الثامنة عشر عندما فتح الحبُّ عينيَّ بأشعته السحرية، ولمس لأول مرة بأصابعه النارية، وكانت سلمى كرامة المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها، ومشت أمامي إلى جنة العواطف العلوية حيث تمرُّ الأيام كالأحلام وتنقضي الليالي كالأعراس.

سلمى كرامة هي التي علمتني عبادة الجمال بجمالها، وأرتني خفايا الحب بانعطافها، وهي التي أنشدت على مسمعي أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية.

أي فتى لا يذكر الصبية الأولى التي أبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها، جارحة بعذوبتها، فتّاكة بحلاوتها؟

من منا لا يذوب حنينًا إلى تلك الساعة الغريبة التي إذا انتبه فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت، وأعماقه قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بكل ما فيها من مرارة الكتمان، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد، لكل فتى سام تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل لانفراده معنى شعريًا وتبدل وحشة أيامه بالأنس، وسكينة لياليه بالأَنغام.

---

٤) هذه توطئة رواية "الاجنحة المتكسرة".

كنت حائرًا بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والأسفار عندما سمعت الحب يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسُبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود النور؛ فسلمى كرامة هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب وهي التي أفهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام هذه الأشباح. حواء الأولى أخرجت آدم من الفردوس بإرادتها وانقياده، أما سلمى كرامة فأدخلتني إلى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادي، ولكن ما أصاب الإنسان الأول قد أصابني، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي أخافني بلمعان حده وأبعدني كرهًا عن جنة المحبة قبل أن أخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشر.

واليوم، وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الأيام، لم يبق لي من ذلك الحلم الجميل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسي، مثيرة تنهدات الأسى في أعماق صدري، مستقطرة دموع اليأس والأسف من أجفاني، وسلمى — سلمى الجميلة العذبة قد ذهبت إلى ما وراء الشفق الأزرق، ولم يبق من آثارها في هذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر رخامي منتصب في ظلال أشجار السرو، فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلمى كرامة، غير أن السكينة التي تحفز القبور لا تفشي ذلك السر المصون الذي أخفته الآلهة في ظلمات التابوت، والأغصان التي امتصت عناصر الجسد لا تبيح بحفيفها مكنونات الحفرة، أما غصات وأوجاع هذا القلب فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الآن مع

قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التي مثلها الحب والجمال والموت.

فيا أصدقاء شبيبتي المنتشرين في بيروت إذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا تزعج أقدامكم رفات الراقدين تحت أطباق الثرى وقفوا متهيبين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم جثمانها ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: "هنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر إلى ما وراء البحار، وههنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى، مرددة مع أشباح الوحشة ندبات الحزن والأسى، نائحة مع الغصون على صبية كانت بالأمس نغمة شجية بين شفتي الحياة فأصبحت اليوم سرًا صامتًا في صدر الأرض".

استحلفتكم يا رفاق الصبا بالنساء اللواتي أحبتهن قلوبكم أن تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي؛ فرُب زهرة تلقونها على ضريح منسيّ تكون كقطرة الندى التي تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة.

***

أمين الريحاني

من زعماء الحركة الفكرية في سوريا ومن دعائم النهضة الأدبية في المهجر، دعته صحافة سوريا فيلسوف الفريكة (نسبة إلى مسقط رأسه) على أننا لا نخطئ إذا دعوناه فيلسوف سوريا، فقد كان ولم يزل أمام المفكرين فيها.

وُلد الريحاني في الفريكة سنة ١٨٧٩ وهاجر إلى الولايات المتحدة وهو في الحادية عشرة من سنه، فاقتبس الآداب الإنكليزية والعربية دون مدرسة، على أنه تردد إلى مدرسة ليلية زمنا استعدادًا لدرس الشريعة، ثم دخل كلية الحياة وغادرها دون أن ينهي دروسها، ونزع إلى فن التمثيل فكانت له فيه إجادة دعته إلى الانخراط في سلك جوقة تمثيلية أمريكية، وما لبث أن تركها وانقطع إلى سواها حتى بارح البلاد عائدًا إلى سوريا سنة ١٨٩٨ وهي أول عوداته إلى الوطن، فأقام زمنًا ثم عاد إلى الولايات المتحدة، ولم يلبث أن ركب البحر ووجهته سوريا للمرة الثانية سنة ١٩٠٤ فأقام فيها ست سنوات وهي سنوات تنسكه الشهيرة في وادي الفريكة — سنوات أثمرت وعادت بالنفع على الآداب العربية، وكيف لا وفيها تمخضت قريحة الريحاني بالريحانيات وكتاب خالد وسواهما، ثم آب إلى أمريكا ومكث فيها حتى سنة ١٩١٢ فعاد إلى سوريا عودته الثالثة، ثم جمع إلى الولايات المتحدة ولم يبارحها بعد ذلك إلا مرتين تردد فيهما إلى المكسيك هربًا من شتاء نيويورك القاسي.

والريحاني يكتب بالإنكليزية كالعربية، وله مقالات نفيسة فيها ظهرت في أمهات الجرائد الأمريكية، ومن كتبه المطبوعة بالإنكليزية "كتاب خالد" و"رباعيات أبي العلاء المعري" المنظومة شعرًا و"خارج الحريم" وله بالعربية من الكتب المطبوعة "الريحانيات" الشهيرة الجزء الأول والثاني، ونبذة في الثورة الفرنسية و"المكاري والكاهن" و"زنبقة الغور"، وله الجزء الثالث والرابع من الريحانيات تحت الطبع.

المدينة العظمى

السلم والهاوية لا نهاية لهما في الحياة، لأن الدرجة الأولى منهما في المهد والدرجة الأخيرة في القبر، أينما كان المرء إذن يرى كثيرين من الناس فوقه وكثيرين تحته، وكلما ارتقى درجة في معالم الفوز والفلاح يسمع أصواتًا بعيدة تدعوه إلى ما هو فوقها.

وكما في الناس كذلك في المدن، فلا يحق للوندرة مثلًا أن تصعر خدها للقاهرة، ولا للقاهرة أن تشمخ بأنفها على بيروت، لأن حسنات المدينة العظمى قد تكثر في هذه وتقل في ذلك.

المدينة العظمى هي التي لا تتداخل في شؤونها سلطة أجنبية، هي التي يكون كل امرئ فيها مثالًا للحرية والإخاء، هي التي يتعلم الأولاد الاستقلال وعزة النفس في مدارسها قبل كل العلوم، هي التي تكون الصداقة فيها أمرًا مقدسًا والإخلاص محترمًا كسر من الأسرار الإلهية قيل

لبعض العرب: من سيدكم؟ قالوا: فلان. قيل: بم سادكم؟ قالوا: احتجنا إلى علمه واستغنى عن دنيانا

وقال سيد من العرب لقومه: "اعلموا أني ما سدت عليكم حتى صرت عبدًا لكم أغدق على سائلكم، وأصفح عن جاهلكم، وأحوط حريمكم وأدفع عن غريمكم، فمن فعل مثلي فهو مثلي، ومن فعل فوق فعلي فهو فوقي، ومن فعل دون فعلي فهو دوني".

فهل يا ترى يوجد بين المتمدنين اليوم من تجتمع فيه هذه الخلال الشريفة كلها؟ أفلا يحق لمدينة المستقبل أن تفاخر سائر المدن بمثل هذا الأمير؟

وبين العرب من كان أعظم منه، دخل ابن العباس على عليّ بن أبي طالب خارج الكوفة وهو يقطب نعله، فقال له:

- ما قيمة هذه النعل؟

- فقال ابن عباس: لا قيمة لها.

- فقال له عليّ: لهي أحب إليّ من إمرتكم، إلّا أن أقيم حقًا أو أدفع باطلًا.

فالمدينة العظمى هي التي يكثر فيها مثل هؤلاء الرجال العظام الصالحين.

الجوع

إذا نضبت في البلاد الأنهار، واستحالت السماء نحاسًا حاميًا ترسل أشعة شمسها نقمة وانتقامًا فتحرق الأشجار وتأكل النبات، وتجفف الأرض، وتجعل الحقول كالصحراء يحدث في الناس مجاعة لا يد جانية فيها للإنسان. وإذا غزا الجراد زرع أمة ومروجها، يلتهم الأخضر واليابس كشمس النفود في الصيف، فلا يترك وراءه شيئًا يصلح للغذاء، يحدث في البلاد مجاعة لا يد أثيمة فيها للإنسان. وإذا ألقى الوباء في أمة عصاه، وشرع يفتك فيها فتكًا ذريعًا أوجب عليها النطاق الصحي فأبعدها من خيرات الأرض خارج تخومها، قد تجهز عليها مجاعة لا يد جانية فيها للإنسان. وإذا كانت أمة في حرب فحاصرها العدو وحبس عنها الزاد فأبت التسليم صاغرة، قد تهلك جوعًا، ولا ذنب في ذلك على العدو أو عليها، أما أذا وطأ الجيش المحاصر أرضها وأبت البقية الباقية الرضوخ والاستكانة ملجة في العصيان فقد يتخذ الفاتح التجويع طريقة للاستيلاء التام، وقد يكون الذنب في ذلك عليها..

ولكن أمة طائعة أولياء أمرها، أمة مخلدة إلى السكينة أمة بريئة طاهرة الذيل، تربأ على الضيم صبورة، سكوتة جلودة، تربتها في الأقل لم تزل جيدة، أنهارها لم تزل جارية سماؤها لم تزل مقيمة على عهودها ترسل غيثها خيرًا شتاءً ربيعًا. في مثل هذه الأمة لا تحدث مجاعة إلا لأحد أمرين: لجهل فيها، أو لجور في أولياء أمرها.

والمجاعة التي لا يد فيها للطبيعة أو للقضاء أو لله إنما هي جناية الإنسان الكبرى على أخيه الإنسان. إن خيرات الأرض لتكفي أبناء الأرض وإن التكافل والتعاون لمن أوليات الوجود الإنساني الحضري منه والمدني، فإذا أغفلنا الآن البحث في أسباب المجاعة ونظرنا في نتائجها فقط تحتم علينا النظر أيضًا في الطرائق الفعالة لإزالتها. ولإزالتها سريعًا.

أمة صغيرة في بقعة قصية من الأرض تتضور اليوم جوعًا، وأمة كبيرة عزيزة الشأن عظيمة الصولة يفيض عنها من خيراتها أليس من العدل إذًا، بل من الواجب المقدس أن نأخذ مما فاض عن هذه لنطعم تلك الجائعة؟.. نعم، وما يصح في الأمم يصح في الأفراد، وهذا التعديل في خيرات الأرض عدل لأفضل فيه لمن أعطى ولا شكر عليه ممن قبل العطاء.

الأمة المنكوبة أمتنا أيها الناس، الجياع فيها إخواننا، وأن الفائض عنا اليوم لا حق لنا به البتة، لا والله، ليس ما فاض من خيرنا اليوم لنا هو للجياع في بلادنا، ولو كنت من أولي السيادة والسلطان لأخذت اليوم من الشبعان لا طعم الجائع، لفرضت على كل سوري مقدارًا من المال يدفعه راضيًا أو مكرهًا. وماذا يضر السوري لو دفع اليوم دولارًا واحدًا لإغاثة إخوانه في الوطن، دولارًا واحدًا على كل سوري الفقير والغني سواء.

إني من أصحاب الرأي لا من أصحاب السيادة لذلك لا أستطيع أن أضرب ضريبة هي حق والله على كل سوري، ولكني عملت بطريقتي وبحقي فدعوت إخواني في المهجر في مقال سبق إلى الصوم يومًا واحدًا يدفعون ما يوفرون في هذا اليوم إعانة للمنكوبين، وقلت إننا إذ خبرنا الجوع نرثى لحال الجائع فنسرع لإغاثته.

وكي لا يقال أني أبشر بما لا أفعل بدأت بنفسي عاملًا برأيي، فإني محاسب لقلبي إذا مال وللساني إذا قال، لذلك صمت عن الأكل والشرب والتدخين يومين وصالا، ودفعت نفقة اليومين إلى اللجنة، وجئت في هذا المقال أطلع القارئ على ما خبرته من نتائج الصوم ومفعول الجوع.

فإذا كانت كلمتي في الصوم ذهبت أدراج الرياح عسى أن يؤثر عملي فيحمل إخواني في المهجر على الاقتداء بي. من الساعة السابعة مساءً حين بدأت أصوم حتى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم الثاني لم أشعر قط بالجوع، ولكنني أحسست بطنين في أذني وبتجفف في لساني، وبشيء من المرارة في فمي، على أني في الساعة السابعة أي بعد مرور أربع وعشرين ساعة بدأت أشعر نوعًا بالجوع وبالعطش وبشيء من الدوار.

كنت أصيل هذا النهار أتمشى وصديق لي في أحد شوارع المدينة فمررنا بمطعم صفت في شباكه أنواع الخبز والكعك والحلويات؛ فوقفت

أمام الزجاج الحائل دوني وتلك الجنة ناسيًا ذاتي أمثل في نفسي ولدًا فقيرًا جائعًا لا فلس في يده يفثأ به ثورة جوعه، اخترقت الزجاج عيناي وما فيهما من نهمة إلى الأكل فتحلب اللعاب في فمي فغصصت بمر مذاقه وترغرغت عيناي بالدموع، هذا وأنا لا أشعر حقًا بمضض الألم في معدة فارغة وقلب يقتر شواءً لأني أجوع مختارًا والمسكين الذي صورته أمامي – بل أمام تلك المآكل المصفوفة وراء الزجاج – يجوع مكرها.. إن جوعي ينتهي ساعة أريد، وأما جوعه فلا يزول إلا ساعة يتصدق عليه أحد المحسنين؛ فقلت في نفسي أن حالة اجتماعية توجد مثل هذا المسكين الجائع لحالة ذميمة، منكرة، فاسدة، جهنمية، وإذا كانت كذلك فكيف بها والمسئولون عنها يجوعون عمدًا أمة بأسرها؟.

لقد شاركتك جوعك يا أخي؛ فتعال أقاسمك كسرتي عله تعالى يبعدني من ذل الحاجة والاستجداء الذي هو أشد ويلًا من مضض الألم الذي يولده الجوع، ألا فليردد كل سوري هذا الكلام، هذا الابتهال، وليمثل حول مائدته الفاخرة صبيًا فقيرًا عضه الجوع، أنهكه، أقعده، أضناه، أورثه الهزال والخبل فيسارع إلى إغاثته.

ومن غريب أمر الصوم أن صاحبه لا يشعر بالجوع إلا في الساعات التي اعتاد أن يأكل فيها، فإني بعد أن أتمت الساعة العاشرة استفقت نصف الليل ولا أثر في نفسي للصوم، كأني قضيت البارح وقد أكلت على عادتي ثلاث مرات.

ولكنني نهضت صباح اليوم الثاني وفي ساعة الفطور نهم إلى الأكل، وهذا لاشك من قبيل العادة، على أن مظاهر الجوع ازدادت نوعًا وشدة، فتحت فمي فإذا به كالقطن جفافًا بلعت ما تحلب من رضابي إذ مررت بركوة القهوة فإذا به أمر من الحنضل، نظرت إلى لساني فإذا به أبيض كالحليب، لمسته بأصبعي فإذا به كعباءة الراهب خشونة، أما أذناي فازدادتا طنينًا، وأحسست أن رأسي جسم غريب ركب موقتًا بين كتفي، نزلت الدرج وعدت إلى غرفتي فألمت بي نوبة من الارتعاش شديدة أقعدتني بضع دقائق وأنا أرتجف حتى أطرافي، وكنت أثناء ذلك أحس بموجات حارة تتماوج في داخلي وبالأخص في جوار المعدة.

فقلت في نفسي قد عضك الجوع يا رجل، قد دنوت من إخوانك في الوطن، نعم بدأت في اليوم الثاني أشعر بالجوع وأتألم من شعوري، فهذا الضعف في رجلي وبالأخص في مفاصلي وركبتي إن هو إلا احتجاج المعدة على صاحبها، بل على باريها، بل على من في أيديهم خزائن الأرض المسئولين عن توزيع خيرات الدنيا على عباد الله.

مررت بركوة القهوة ثانية فوقفت أمامها راغبًا مترددًا ثم امتنعت لأني آليت على نفسي أن أصوم يومين كاملين، وفي البيت المقيم فيه أناس في الدور الأسفل يطبخون طعامهم فتتصاعد أحيانًا روائح المطبوخات فتسطع في منزلي وتزعجني جدًا، ولكن اليوم يوم الصوم والجوع؛ فإن امرءًا يقتر شواءً يتصاعد صوت نشيشه من فوق النار إلى

منزلي لا حب عندي من مطرب أو مطربة، وإن روائح الشواء والأبازير في أنفي لألذ من روائح المسك والبخور.

ولت ساعة الفطور وولى معها مضض الجوع ولا غرو فإن للعادة حتى في الأكل كما قلت تأثيرًا شديدًا فينا، إذ ما السبب يا ترى في رغبتي بالطعام في ساعات اعتدنا أن نتناوله فيها وفي نسيانه بل الرغبة عنه في الفترات بينها؟ أما الفكر مني ففي اليوم الأول من صومي كان لم يزل رائقًا صافيًا، ولكنه في اليوم الثاني أصبح خاسئًا حسيرًا.

ومن غريب أمر الصوم أيضًا أن الذي يصوم يومين يستطيع أن يصوم خمسة بل عشرة أيام وصالا، فأنا في مساء اليوم الثاني لم أشعر بشهوة إلى الأكل شديدة كمساء اليوم الأول، وقد قرأت أخبار أناس صاموا أسبوعين وثلاثة دون أن يتعطل فيهم عضو من أعضائهم الحيوية كالكبد أو الكليتين أو الرئة أو القلب.

ومعلوم أن الأقدمين كانوا يكثرون من الصوم والتنحس، وقد قال ابن خلدون: "وقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يومًا وصالًا".

على أنه لا ينكر أن الصوم أيامًا وصالًا يفقد المرء قواه الجسدية والعقلية فإن العضلات والأعصاب لتتقلص وتذوب من الاقتيات مما كونت منه وأن العقل ليخسأ ويمرض من تشرب دما لا غذاء فيه، أي أن الصائم طويلًا الطاوي أيامًا يعيش على لحمه ودمه، يأكل بالحقيقة نفسه.

نعم إخواني، إن الجائع يعيش على لحمه ودمه، والجائع كرهًا يقاسي من مضض الذل: ذل الحاجة، وذل الطلب، ما هو أشد من مضض الجوع.

كتبت مرة نبذة أنتقد فيها بعض التعابير العربية التي نرددها نحن الكتاب وقلما نتحقق تمام معناها، من جملتها قولنا، "الجوع المدقع" فاستغربت إذ عدت إلى القاموس النعت، وقلت أن لا أحد يجوع جوعًا يلصقه بالدقعاء أي التراب، فمهما اشتدت سورة الجوع لا تبلغ درجة يصح أن ننعتها بالدقوع، ولكني تحققت اليوم خطأي، فإن الجوع يوهن، يهزل، ينهك، يقعد، يهلك، وإذا كان الجائع هائمًا في البرية يطلب الأعشاب يقتات بها فليس من الغريب أن يسقط في الطريق من شدة الجوع، نعم رأيت كلاب السوق في الشرق في جوع ألصق بطونهم ووجوههم بالتراب، وكنت أجل البشر عن ذلة الكلاب وجوعهم.

فوا أسفاه! إننا لنتحقق اليوم من حال بلادنا صحة التعبير العربي بل تحققنا التقصير فيه لا الغلو، مئات بل ألوف من إخواننا مطروحون اليوم في الطرق والأسواق تتلاشى أجسامهم عضوًا عضوًا، عيونهم شاخصة إلى الشمس نهارًا إلى السماء والنجوم ليلًا، يسألون باريء الأكوان كسرة من الخبز، قلوب واجفة، أَبصار خاشعة، نفوس حزينة حتى الموت، معد تلتصق بالأضلع منهم كما تلتصق أجسامهم بالدقعاء، بالتراب، في فمهم المرة الصفراء – مر الحياة – يبتلعونها ثم يبتلعونها، في أعصابهم الملتصقة غصص الرعشة، في أجسامهم المرض والوهاء.

شيوخ وأطفال، نساء ورجال، يسارعون إلى المدينة من الجبال علهم يلتقطون في أسواقها ومن فضلات ذوي اليسار فيها كسرة من الخبز فيتساقطون في الطرق كورق الخريف وقد استحوذ عليهم الجوع المدقع، أفلا تشاركهم جوعهم يومًا واحدًا أيها السوري! أفلا تمدهم بنفقة يوم من أيام يسرك!

ووالله لو مر بهؤلاء المناكيد الجياع وحش ضار أو عقاب كاسر لمال بوجهه عليهم، لرثى لحالهم، وإننا نعلم أن في الحيوان غريزة هي أشرف من غريزة الإنسان التي أفسدتها المدينة والتكالب فيها، فمن الطيور من يطعم صغارها من قلبها إذا لم تجد لهم رزقًا.

فيا أيها السوري النائي عن إخوانك المنكوبين جئت أخبرك خاشعًا لا مفاخرًا أني صمت يومين فأنهكني، أقعدني يوم واحد من الجوع، فكيف بمن يصومون أيامًا بل أسابيع؟ اليوم! اليوم! من كان غنيًا فليستعفف! من كان مترددًا في التبرع فليتقدم! من كان متقاعدًا فلينهض! من كان في سبات فليستفق! وما الفائدة من القول غدًا غدًا فإن مثل هؤلاء المستحجرة قلوبهم يلوحون بثربدتهم للجائع الأقرب إلى الضاري من الحيوان منهم إلى الإنسان.

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت، ويبتلي الله بعض القوم بالنعم، الصوم! التقشف يومًا واحدًا ! تملكون تلك النفس منكم الشارهة إلى اللذات فإن مثل هذه السيادة على أنفسكم لا شرف من وجاهة يجرها

لكم المال، صوموا يومًا واحدًا وتصدقوا علينا بدولارين مما رزقتم، الأمة أمتنا جاثية على قارعة الطريق تئن من ألم الجوع – الجوع المدقع، الجوع المهلك، فهلا تسارعنا، بل تسابقنا إلى إغاثتها ؟ "أليس بَلسَان في جلعاد ؟"[٥].

ريح سموم

وبربك القيوم، ما الذي تظنه يدوم، صوت سمعته في الكروم، وقد مرت عليها ريح سموم، فجفت الأرض وعادت جزرة كثيرة الكلوم،

---

٥) ننقل للقراء الكرام بمناسبة هذه المقالة ما جاء في جريدة الأهرام الغراء (عدد ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٠) وهو **صوم والي كورك** منذ ١٢ أغسطس إلى اليوم قبض الإنكليز على ماك سويني حاكم كورك الأيرلندية لاشتراكه بكيد المكاليد للضباط والجنود مع جماعة السن فين وسجنوه في لندره فانقطع مختارًا عن الأكل والشرب منذ ١٢ أغسطس إلى اليوم ولكنه لم يمت والرجل مشهور بأنه من زعماء الأيرلنديين، وبأنه يتولى قيادة آلاى المتطوعين، ويدير الحكومة الأيرلندية الجمهورية، وقد باع أملاكه الواسعة وأنفق ثمنها في سبيل الدعوة الأيرلندية، ولما كان سلفه قد مات قتلا فإنه تنازل عن نصب راتبه لأرملة ذلك السلف. وليس عجيبًا أن يعيش الإنسان ٣٠ يومًا بلا طعام فمنذ عهد ليس بعيدًا صام المسمى سوكشي ٤٠ يومًا ولكنه كان يشرب كل يوم كأسًا واحدًا من الماء المحلى بالسكر، ويقول الأستاذ أن مستر لزون وشوسات أن الصائم لا يموت إلا إذا فقد ثلث وزنه وقال أحد أساتذة مدرسة الطب العليا في باريز كلما كان الصائم كثير الشحم طال عمره، ولكنه يشترط لطول الحياة أن يظل الصائم بلا حركة حتى لا يضيع ما فيه من حرارة الحياة، وبما أن متوسط حرارة الحياة في جسم الإنسان ٣٧ درجة فالهبوط إلى ٢٤ درجة يفضي إلى الموت حتمًا والذي يخشى منه على الصائم تسمم الدم ولكنهم يتفادون عن ذلك بشرب الماء الذي يحول دون هذا التسمم وبواسطة الماء يؤجل الموت أيامًا بل بضعة أسابيع.

وسقطت الجفان عن فسائلها وفزعت أوراقها إلى الغيوم، صوت صارخ من وراء النجوم ما الذي تظنه يدوم؟.

من صروح زاهية فخيمة، من رياض زاهرة كريمة، من بروج شاهقة عظيمة، من معامل حديثة أو قديمة ما الذي تظنه يدوم؟

من أسراب منورة تحت الأنهار، من أرتال فيها تدفعها الكهربائية أو يجرها البخار، من بوارج ما خراب في البحار، من أساطيل تنذر بالدمار، من معالم في الأمصار الأقطار، ما الذي تظنه يدوم؟

من أنفاق تحت الأديم ملؤها عجاجة، تنفثها وتثيرها القطر الولاجة، من قباب بين السحاب وهاجة، من جسور فوق المياه جسيمة، من متاحف في عواصم العالم فخيمة، ما الذي تظنه يدوم؟

من سدود محكمة منيعة، من خلج كونتها الطبيعة، من تُرع تؤلف بين البحار، وتجمع بين بعيد المطارح وشاسع الديار، من خطوط حديدية تطوق الأرض، من أسلاك برقية تطوق المسافة في الطول والعرض، ما الذي تظنه يدوم؟ من أبنية ذات الطبقات العشرين، من أحياء في المدن الكبرى يأوي إليها المساكين، من معابد وبيع لا أثر فيها للدين، من أصقاع لا صوت فيها للصالحين، ما الذي تظنه يدوم؟ من قصور مكتنفةٍ برياض خضراء، من صروح الكبراء والأمراء، من بيوت الرؤساء والأغنياء، من أكواخ البؤساء والفقراء ما الذي تظنه يدوم؟

من شرائع ودساتير ونظامات، من تقاليد وعوائد وخرافات، من أديان وعقائد وخزعبلات، من دول وممالك وحكومات، من أحزاب وطوائف وجماعات، ما الذي تظنه يدوم؟

صوت صارخ من وراء الغيوم، صوت ريح سموم، أي شيء يدوم.

مهلًا مهلًا إن هذه كلها لصالحة في ذاتها، إن هذه كلها لحسنة في وقتها، لكل شيء من العز والمجد أركان، لكل شيء من أبناء البطر والأشر أعوان، لكل شيء برهة من دهره الوسنان، ساعة أو عام أو حين من الزمان، الطويل من الدهر والقصير سيان، ولكن قل لي بربك القيوم مبدع الشمس والنجوم، أتظنها إلى الأبد تدوم؟

إلى حين يا أخي إلى حين، إي ورب العالمين إلى حين؛ وبعد فقل لي هل أنت من الممترين، أم أنت من المفندين السائلين؟

أما في زمانك تأملت المغاور في الصخور، فاذكر أن الأمطار والرياح تكونها، والأمطار والرياح تهدمها، إن كل صالح مقبول حتى يظهر على ميدان العالم قائم على المظالم البشرية، أو مناضل عن الحقيقة الأخوية، أو باذل مهجته في سبيل الإنسانية، إن كل شيء في مركزه حريز حصين، إلى أن يزلزله رجل حصيف رشيد، أو امرأة صالحة ذات رأي سديد، فيعلو إذ ذاك صوت المطالب بحقوق المستضعفين المستذلين، ويلحق الجبارون بالأخسرين، أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وبعد أن تلاشت ريح السموم فوق الجبال، تلاها نسيم لطيف الاعتلال، فدخلت معه غابة من الصنوبر كثيفة الظلال وسمعت من خلال الأغصان، صوت المحبة والمعروف والحنان، سمعت صوتًا يقول وربِّ الأكوان، لا يدوم إلا الإحسان والعرفان، لا يدوم إلا السجايا الروحية الفريدة، سجايا النفس البشرية الخالدة، لا تدوم إِلا آثار النهضات الجليلة، ومآثر الأنفس السامية النبيلة، وما أسخف الجدل الوهمي أمام مشروع جليل، وما أوهن التعاليم الوضعية في وجه خطب جسيم، وما أوهى الأقوال والآراء إذا قوبلت بنظرة من رجل عظيم، أو صادفت نفحة من نفحات حكيم، وعندما يرفع مثل هذا رأسه وصوته ولا فرق عندي رجلًا كان أو امرأة يقف دولاب الأعمال، ولا يبقى شيء على حال، عندئذ يبطل الجدال، وتنكسر شوكة المال، وتحشر الرجال، وتكبر الآمال، يومئذ تتغير العادات، وتهب على الأرض الذاريات السافيات، فيسأل السائل من وراء النجوم أين مالكم ونفوذكم، أين تقاليدكم وعقائدكم، أين شرائعكم ودساتيركم، أين حصونكم وصروحكم، أين مصانعكم ومعاهدكم، أين زخرفكم وسفاسفكم، فقل إن هي إلا برهة من الدهر الوسنان، ساعة أو عام أو قرن من الزمان، قل وبربِّ الأكوان، لا بقاء لما سوى آثار الجد والعرفان، والمعروف والحب والإحسان، فهي هي الجبال الراسيات، وهي هي الحصون الواقيات، وهي هي الباقيات الصالحات، بلى ورب السماء والنجوم، لن تدوم إِلا آثار النفوس الطاهرة ووجه ربك الحي القيوم.

ميخائيل نعيمة

كاتب شاب لم يبلغ الرابعة والثلاثين حتى الآن، ولكنه أدرك من الأدب شأوًا يقصر دونه الكثيرون. وُلد في بسكنتا بلبنان وتلقى دروسه الإبتدائية في مدرسة للروسيين هنالك ثم انتقل منها إلى المدرسة الروسية الداخلية في الناصرة، فدرس فيها أربع سنوات انتدبته المدرسة بعدها للذهاب إلى روسيا لإتمام دروسه في مدارسها العالية، فسافر إلى مدينة بلتافا ودخل كليتها وأنهى دروسها، ثم غادر روسيا إلى أمريكا ودرس الحقوق في جامعة واشنطن ونال شهادتها في الشريعة عام ١٩١٦.

ميخائيل نعيمة من الساعين في تأسيس عصر ذهبي للآداب العربية في المهجر، وله تفنن ومهارة ومقدرة في الانتقاد قلما يجاريه فيها أحد، والأدباء يتوسمون فيه منتقدًا جريئًا ساعيًا في تسيير الآداب العربية على منهاج التقدم، منكبًا على تنقية حقل الأدب من زوان الكويتبين والشعارير، وله "رواية الآباء والبنون".

الرواية التمثيلية العربية[٦]

حنق البعض على الغرب لاعتقادهم أن المدنية الغربية نفثت في حياتنا الجميلة الطاهرة، الراتعة بأمن تحت أجنحة الملائكة والقديسين،

---

٦) توطئة لرواية "الآباء والبنين".

روح فسق وخلاعة وكفر، وتغنى الآخرون بعظمة الغرب فصاحوا بنا: "هيا نعبد الغرب وكل ما خلقه الغرب".

أما نحن فنرى الأفضل أن نقف على الحياد بين أولئك وهؤلاء تاركين لهم تسوية خلافهم بالمدى والفؤوس إذا أرادوا، بشرط أن لا يعارضونا إذا تجاسرنا أن نعترف ولو بفضل واحد للغرب، وهو فضل آدابه على آدابنا.

ما تعوَّد البعض أن يدعوه "نهضة أدبية" عندنا ليس سوى نفحة هبت على بعض شعرائنا وكتَّابنا من حدائق الآداب الغربية، فدبت في مخيلاتهم وقرائحهم كما تدب العافية في أعضاء المريض بعد إبلاله من سقم طويل، والمرض الذي ألمَّ بلغتنا أجيالًا متوالية كان شللًا أوقف فيها حركة الحياة وجعلها بعد عزها السابق، جيفة تتغذى بها أقلام الزعانف المستبعدين وقرائح "النظّامين" والمقلدين، أما اليوم فقد رجعنا إلى الغرب، الذي كان بالأمس تلميذنا، لنقتبس عنه أمثولة جعلناها حجر زاوية "نهضتنا الأدبية" وتلك الأمثولة هي أن الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان، وأن الأدب يتوكأ على الحياة، والحياة على الأدب، وأنه – أعني الأدب – واسع كالحياة، عميق كأسرارها، ينعكس فيها وتنعكس فيه، أدركنا – بفضل الغرب – أن نظم الشعر ممكن في غير الغزل والنسيب، والمدح، والهجاء، والوصف، والرثاء، والفخر والحماسة، لذاك أطربتنا نغمة بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا أن يتعدوا هذه الحدود المقدسة، وانتقلت إلينا – بفضل الغرب كذلك – الرواية، أو ما

يدعونه بالإنكليزية (نوفل) وبالفرنسية (رومان)، وكنا أسبق الناس إليها، فوجدنا فيها مجالًا واسعًا لوصف الحياة والتأثير على العقول والقلوب بواسطة القلم، وأدركنا أن النثر لا ينحصر في صف الكلام المسجع، والإكثار من الألفاظ الشاردة المدفونة في بطون المعاجم، وتحبير المقالات المملة في مواضيع مبتذلة، فقام بيننا بعض من جربوا أن يمثلوا حياتنا اليومية في روايات وطنية.

وهذه خطوة إلى الأمام.

لكن "نهضتنا الأدبية" لا تزال في الأقمطة، وما نطقت به حتى اليوم ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيد اللسان، محدود العواطف، ضعيف العضل، وقد لا يحق لنا أن نلومها على هذا الضعف، لكننا لا نكتم أن رجاءنا بمستقبلها يضعف عندما نراها قد أهملت بابًا كبيرًا من أبواب الأدب لو خيّر الغرب بينه وبين بقية الأساليب الكتابية لاختاره دونها، نحن نعني – الدراما – الدراما رافقت الآداب الغربية منذ نشأتها حتى هذه الساعة فأصبحت ركنًا من أركانها، وأقام لها الغربي المعاهد التمثيلية (التياترو) فأصبحت هذه جزءًا من حياته اليومية كالمدرسة والبيت والكنيسة، في التياترو تجد نفسه الجائعة المثقلة بأتعاب العمل وهموم الحياة راحة وتعزية وقوتًا، من أوحال عيشته التي يشابه صباحها مساءها ويومها أمسها ترتفع روحه إلى عالم تجول فيه العواطف البشرية بين جميلها وقبيحها، وضعيفها وقويها، وشريفها ودنيئها، يرى بعينه على المسرح بشرًا مثله غائصين في معركة الوجود يكشفون أمامه أسرار

قلوبهم ومخبآت ضمائرهم فيجد في هذه الأسرار وبين تلك المخبآت قسما من الذات التي يدعوها "أنا" ويستعين ببعضها على إصلاح نفسه والإضافة إلى خزانة اختباراته، يضم المؤلف والممثل قواهما – الأول بأفكاره والثاني بصوته وحركاته – ليخترقا حرمة انفراده الذاتي، فيدخلان زوايا قلبه ويمسَّان كل أوتاره ويفتشان بين طيات ضميره ويحركان دولاب أفكاره – وبالإجمال يوقظان فيه كل قوى الوجود فيشعر أنه كائن حي وربَّ كلمة تقع في أذنه فيحتضنها للحال عقله وتختمر بها روحه، أو رب حركة من يد الممثل ينتفض لها قلبه، أو ربَّ مشهد يهزه بكليته كما تهز العاصفة شجرة من جذورها، لكن هذا التأثير في السامع والناظر لا يمكن إحداثه إلا إذا كانت الرواية مشهدًا حيًا من مشاهد الحياة الحقيقية وكان الممثل قادرًا على فهم أفكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الأفكار وتأدية تلك الغاية إلى السامع بواسطة الصوت والحركات، فلذاك يتوكأ المؤلف على الممثل، والممثل على المؤلف، وغير خفي أن أفضل الروايات في يد ممثل ضعيف تضيع كل قوتها ورونقها، وبالعكس – أن الممثل الحاذق يلبس أحيانًا أبخس الروايات حلة جمال وقوة، ولذاك رفع الغرب شأن الممثلين كشأن المؤلفين فأجزل عطاهم بالمال وأحاطهم بالشهرة في الحياة، وطيّب ذكرهم بعد الموت.. فماذا فعلنا نحن؟

نحن لا نزال ننظر إلى الممثل نظرنا إلى "بهلوان" وإلى الممثلة كعاهرة، وإلى التياترو كمقصف، وإلى التمثيل كنوع من القصف واللهو، شعبنا لم يدرك بعد أهمية فن التمثيل في الحياة لأنه لم ير بعد روايات تمثل أمامه مشاهد من حياة يعرف ألفها وياءها، لم ير بعد نفسه على

المسرح، واللوم عائد على كتابنا لا الشعب، جلَّ ما قدمناه حتى الآن إلى الشعب من الروايات التمثيلية ينحصر في بعض روايات معربة أكثرها من سقط المتاع وكلها غريبة عنه، بعيدة عن أذواقه، قصية عن مداركه، أنا لا أشك قط في أننا سنرى عندنا: عاجلًا أو آجلًا، مسرحًا وطنيًا تمثل عليه مشاهد حياتنا القومية، إنما يقتضي لذلك قبل كل شيء أن يحول كتابنا أنظارهم إلى الحياة التي تكرّ حولهم كل يوم، إلى حياتنا بعجرها وبجرها، وأفراحها وأتراحها، وجمالها وقباحتها، وشرها وخيرها، وأن يجدوا فيها مواد لأقلامهم، وهي غنية بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها.

يبشرنا الانقلاب الذي طرأ مؤخرًا على آدابنا بقدوم تياترو وطني ولو كانت العقبات في طريقه لا تزال كثيرة، من هذه العقبات وهمٌ اجتماعيٌ لا يزال راسخًا في عقول الكثيرين هو أن التياترو يفسد الأخلاق الطاهرة، لاسيما أخلاق البنات والنساء، رحمتك يا ربي! ومنها فقرنا إلى الكتاب الروائيين والروايات التمثيلية الوطنية، لكن أكبر عقبة صادفتها في تأليف "الآباء والبنين" – وسيصادفها كل من طرق هذا الباب سواي – هي اللغة العامية والمقام الذي يجب أن تعطاه في مثل هذه الروايات، في عرفي – وأظن أن الكثيرين يوافقونني على ذلك – أن أشخاص الرواية يجب أن يخاطبونا باللغة التي تعودوا أن يعبروا بها عن عواطفهم وأفكارهم وإن الكاتب الذي يحاول أن يجعل فلاحًا أميًا يتكلم بلغة الدواوين الشعرية والمؤلفات اللغوية يظلم فلّاحه ونفسه وقارئه وسامعه، لا بل يظهر أشخاصه في مظهر الهزل حيث لا يقصد الهزل ويقترف جرمًا ضد فن جماله في تصوير الإنسان حسبما نراه في مشاهد

الحياة الحقيقية، هناك أمر آخر جدير بالاهتمام متعلق باللغة العامية — وهو أن هذه اللغة تستر تحت ثوبها الخشن كثيرًا من فلسفة الشعب واختباراته في الحياة وأمثاله واعتقاداته التي لو حاولت أن تؤديها بلغة فصيحة تكون كمن يترجم أشعارًا وأمثالًا عن لغة أعجمية، وربما خالفنا في ذلك بعض الذين تأبطوا القواميس وتسلحوا بكتب للصرف والنحو كلها قائلين ان "كل الصيد في جوف الفرا" وأن لا بلاغة أو فصاحة أو طلاوة في اللغة العامية لا يستطيع الكاتب أن يأتي بمثلها بلغة فصحى، فلهؤلاء ننصح أن يدرسوا حياة الشعب ولغته بإمعان وتدقيق.

الرواية التمثيلية، من بين كل الأساليب الأدبية، لا تستطيع أن تستغني عن اللغة العامية، إنما "العقدة" هي أننا لو اتبعنا هذه القاعدة لوجب أن نكتب كل رواياتنا باللغة العامية إذ ليس بيننا من يتكلم عربية الجاهلية أو العصور الأسلامية الأولى ذاك يعني انقراض لغتنا الفصحى، ونحن بعيدون عن أن نبتغي هذه الملمة القومية، فأين المخرج؟

عبثًا بحثت عن حل لهذا المشكل فهو أكبر من أن يحله عقل واحد، وجل ما توصلت إليه بعد التفكير الطويل أن أجعل المتعلمين من أشخاص روايتي — كداود وإلياس وزينة وشهيدة وناصيف بك — يتكلمون لغة معربة، والأميين — كأم إلياس — أن تتكلم اللغة العامية، أما خليل سماحة — وان لم يكن أميًا تمامًا — فقد رأيت الأحرى أن أجعله يتكلم العامية لأنها توافق طباعه ومداركه، وكذلك موسى بك في حديثه مع أم إلياس وفي بعض المشاهد التي تليق بها اللغة العامية أكثر من الفصحى،

لكني أعترف بإخلاص أن هذا الأسلوب لا يحل "العقدة" الأساسية فالمسألة لا تزال بحاجة إلى اعتناء أكبر رجال اللغة وكتابها.

والمشكل الآخر الذي وقفت أمامه حائرًا سائلًا هو ضبط كتابة اللغة العامية بطريقة تزيل الالتباس والإبهام وتؤدي اللفظ المقصود، تركت أمر "اللهجة" التي تختلف كثيرًا باختلاف المقاطعات والأمكنة إلى فطنة الممثل وحذاقته، لكنني أحجمت تهيبًا عن أن أضع لأجل هذه الروايات وحدها اصطلاحات لضبط الكلام العامي، ونحن بحاجة ماسة إلى هذه الاصطلاحات إذا أحببنا أن نقترب من الشعب وتهذبه بأقلامنا، العامة تستعمل حروفًا لا وجود لها بين حروف الهجاء المعروفة مثل (C.E.O.) الفرنسية وتلفظ القاف في أكثر المحلات كالهمزة، فيجب أن نضيف إلى لغتنا بعض اصطلاحات تقوم مقام هذه الحروف، إنما يجب أن تكون هذه الاصطلاحات عمومية كي لا يحدث تبلبل وتشويش حيث نقصد اتفاقًا ووحدة، فمن يقوم لنا بهذه المهمة؟ لو كان عندنا مجلس أدبي أو شبه أكاديمي لألقينا على عاتقه هذا الأمر، أما ولا أكاديمي لنا فهل تصدق الأحلام وتحمل الغيرة على اللغة العربية وآدابها بعض أدبائنا في الشام ومصر على تأليف هيئة دائمة تعتني بترقية اللغة والمحافظة عليها وتكييفها بموجب الزمان والأحوال؟

أفضل ألَّا أقول شيئًا عن أشخاص الرواية أو الرواية نفسها سوى أني حاولت أن ألج فيها طرفًا محدودًا من موضوع حيوي كبير في حياة الأمم جمعاء – وحياة شرقنا على الأخص – ذاك هو الخلاف الأبدي

بين الآباء والبنين والتباين الدائم بين القديم والحديث، وإذا لم يكن نصيبي منها سوى دفع كتابنا الأوفر مقدرة مني في معالجة مواضيعنا الاجتماعية على تأليف الروايات التمثيلية فقد نلت غايتي.

إذا شئنا أن نرفع آدابنا من المستنقعات التي تتمرغ فيها فعلينا أن نسعى من الآن لوضع أساس متين للمسرح العربي بتربية أذواقنا التمثيلية وتعزيز الرواية الوطنية، حتى إذا نهضنا كانت "نهضتنا" نهضة جبار أفاق من نوم طويل لا نهضة عاجز فتح عينيه ليرى الموت أمامه.

***

أنموذج من الرواية [٧]

شهيدة: ما أغرب أطوار أمك! أتصدق أني لم أرَ دموعها حتى اليوم وما أشد تأثير دمعة من عين امرأة جبارة؛ مستبدة كأمك (تجلس على المقعد).

إلياس: (واقفًا) لعلها تكفر بهذه الدموع عن هفواتها السابقة، لكن دعينا من البكاء الآن، فلا دموع أمي ولا بحار مثلها قادرة أن تعكر كأس سعادتي، (بحرارة) شهيدة! (يأخذ يديها في يديه وينظر في عينيها) أنتِ لي الكل بالكل في هذا العالم، وأكاد أعتقد أن العناية الإلهية قد أرسلتك لنجاتي، شهيدة! أنا عاجز أن أفسر لك أهمية حبك في حياتي

[٧]) الفصل الرابع صحيفة ١١٠

قد مرّ بي أكثر من خمسة وعشرين ربيعًا، وفي كل ربيع كنت أخرج إلى هذه الحديقة وأرى هذه الأشجار مزهرة وأسمع هذه العصافير تزقزق وأرى السماء الزرقاء وأشعر بصوت النسيم البليل، لكني قبل هذا الربيع لم أكن أرى الجمال في كل ذلك، واليوم لا أرى الأزهار فقط بل أرى الحياة تدب في عروقها وأكاد ألمس أريجها، اليوم لا أرى زرقة السماء فقط بل أرى ما وراء السماء ولا أشعر بالنسيم فقط بل ألمس روح النسيم، وأسمع تغريد العصفور فأفهم ما يقوله العصفور، وكل ذلك لأن حبك قد أعطاني نورًا جديدًا لعيني وقد كنت بدونك أعمى (يضع يدها اليمنى ثم اليسرى على فمه ثم يجلس بجانبها) شهيدة! ما أجمل الحياة!

شهيدة: (تقهقه مخرجة من جيبها ورقة تقرأ بتمهل) بتاريخه نحن الواضعين أسماءنا أدناه قد تعهدنا أن نضع حدًا لحياتنا بواسطة المشنقة...(تضحك).

إلياس: (يخطف الورقة من يدها بلطف باسمًا) ألا يكفيك هزءًا بي.. تذكرينني بجنوني في مثل هذه الدقيقة التي أحسبها بدء حياة جديدة لي، كأن دهرًا قد مر من يوم كتبت هذه الورقة حتى هذا اليوم، لندفن الماضي! (يمزق الورقة قطعًا صغيرة) فأنا أتعهد الآن على نفسي أن أشنق كل من لا يرى في الحياة سوى أشواكها وكل من يفرق بين قلبين يربطهما حب كحبنا، (تظهر في الباب أم إلياس وقد أخذت زينة بيدها اليمنى وداود باليسرى وخليل يمشي وراءهم والكل يسيرون نحو إلياس وشهيدة).

شهيدة: (بمرح) أو تشنق أمك كذلك إذا أصرت على رفضها بقبول اتحادنا؟ (إذ ترى أم إلياس قادمة) ها هي قادمة نحونا – فماذا تفعل إِذا اقتربت مني وصاحت – "اغربي عن وجهي؟" (تبتسم).

إلياس: أنا أكفل رضاها، أنا أعرف كيف أرضيها الآن.

***

من أنتِ يا نفسي

إن رأيـــت البحـــر يطغـــى	المـــــوج فيـــــه ويثـــــور
أو ســـمعت البحـــر يبكـــي	عنـــــد أقـــــدام الصـــــخور
ترقبـــي المـــوج إلـــى أن	يحـــبس المـــوج هـــديره
وتنـــاجي البحـــر حتـــى	يســـمع البحـــر زفيـــره

راجعًا منك إليه

هل من الأمواج جئت؟

إن ســـمعت الرعـــد يـــدوي	بـــين طيـــات الغمـــام
أو رأيـــت البـــرق يفـــري	ســـيفه جـــيش الظـــلام
ترصـــدي البـــرق إلـــى أن	تخطفـــي منـــه لظـــاه

ويكـــف الرعـــد لكـــن تاركًـــا فيـــك صـــداه

هل من البرق انفصلت؟

أم مع الرعد انحدرت؟

إن رأيـــت الـــريح تـــذري الـــثلج عـــن رؤوس الجبـــال

أَو ســـمعت الـــريح تعـــوي فـــي الـــدجى بـــين الـــتلال

تســـكن الـــريح وتبقـــى باشـــــــتياق صـــــــاغيه

وأناديـــــك ولكـــــن أنـــــت عنـــــي قاصـــــيه

في محيط لا أراه

هل من الريح وُلدت؟

إن رأيـــت الفجـــر يمشـــي خلســـــة بـــين النجـــوم

ويوشـــي جبـــة الليـــل المـــــولى بالرســـــوم

يســـمع الفجـــر ابتهـــالًا صـــــاعدًا منـــــك إليـــــه

وتخرّي، كنبي هـــبط الـــوحي عليـــه

بخشوع جاثية

هل من الفجر انبثقت؟

إن رأيـــت الشـــمس فـــي حضـــن الميـــاه الزاخـــرة

ترمـــــــق الأرض ومــــــا فيهـــــا بعـــــين ســــــاحرة

تهجــــع الشـــــمس وقلبــــي يشـــــتهي لـــــو تهجعــــين

وتنـــــــام الأرض لكـــــــن أنـــــــت يقظـــــــى تـــــرقبين

مضجع الشمس البعيد
هل من الشمس هبطت؟

إن سمعت البلبل الصياح – بين الياسمين
يسكب الألحان نارًا في قلوب العاشقين
تلتظي حزنًا وشوقًا والهوى عنك بعيد
فأخبريني هل غنى البلبل في الليل يعيد

ذكر ماضيك إليك
هل من الألحان أنت؟

إِيـــه نفســـي – أنـــت لحـــن فـــــيَّ قــــــد رنَّ صـــــــداه

وقعتــــــك يــــــد أســـــتاذٍ خفـــــــــــــــــــــــــي لا أراه

أنـــــت ريــــــح ونســـــــيم أنـــــت مـــــوج، أنـــــت بحـــــر

أنـــت شـــمس أنـــت رعـــد أنـــــت بــــرق أنـــــت فجـــــر

أنت جزء من إله!

الشعر والشعراء

بحث انتقادي أدبي

حرية الابداع

قوانين الشعر، كسواها من الشرائع والسنن، تقيد الحر، وتعتق المقيد، فهي سجن للقريحة الوقادَة ومسرح لا تُحد أطرافه للقريحة الخامدة، دعوني أبسط هذه الحقيقة بالمثل.

تصوروا حظيرة محاطة بسياج من الشوك، فيها الأسد والضبع والنمر والذئب والثعلب والأرنب والخروف والحية والسلحفاة وربوات من هوام الهواء وحشرات الأرض، تحفزها زمرة من البدو مدججة بالرماح والسيوف والنبال، وتصوروا أن أكبر فضيلة يطلبها صاحب تلك المخلوقات منها هي بقاؤها ضمن السياج.

يتخطر الأسد ذهابًا وإيابًا فيصل إلى السياج وينظر إلى ما وراءه فيرى فضاءً لا يُحد ومجالًا لا يقاس، يسمع نبضات قلبه تتضاعف ويشعر بنار تتأجج في صدره، أصوات تناديه من الغابات، وأشباح في الفضاء تسحر أبصاره ونسمات من الجبال تزيد ناره ضرامًا وتولد تحت أرجله مناخس لا ترحم ولا يطاق ألمها، انظروا إلى عضلاته تتجمع وتتوتر وإلى عينيه تقدحان شررًا، وقد تحفز للوثوب من فوق السياج ليلبي دعوة الغابات ويخفف دقات قلبه.

"قف!".. خيال الخفير يمر أمامه فيذكره أن بقاءه ضمن السياج هو أكبر فضيلة، بل الفضيلة الوحيدة التي يطلبها منه صاحبه، والأسد ليس آخر المخلوقات في طلب الفضائل إذا كانت ترضى صاحبه فيرتد عن السياج وقد فارق البرق عينيه وسكنت لواعج النار في صدره.

كذا يفعل النمر والذئب والضبع، ولكن الآلام التي يقاسونها وغصات الفؤاد التي يشعرون بها عند ارتدادهم عن السياج تختلف باختلاف أطباعهم، وشتان بين النمر والحمل.

هنا يتقدم ابن آوي إلى السياج وبينما هو يحفر بيديه منفذًا ليخرج منه يرى صاحبه يقترب، وعصاه في يده فيحييه بلطافة فائقة ويسأله عن صحة "المدام معلمته" ويعود جارًا ذيل الفخر بأن صاحبه لم يكتشف حيلته، وأنه لا يزال يعده من الطائعين.

أما الأرنب فيدنو من السياح وإذا يلقي نظرة إلى ما وراء الشوك ويرى ظل الأشجار ويسمع حفيف أوراقها أو يسمع وقع أقدام الخفير يقفل للحال راجعًا شاكرًا ربه الذي منّ عليه بصاحب شفوق ليعتني به وبسلامته، وليقيم حوله الحصون والقلاع كي لا تلحقه يد أثيمة من أيادي تلك الأبالسة المنفية خارجًا التي لا سياج حولها يقيها غدرات من هم أشد منها ولا صاحب لها يحافظ على أمنها، وفوق ذلك فصاحبه راض عنه لأنه من الطائعين.

وهناك أقبلت السلحفاة تتهادى وقد حفرت في قلبها تلك الآية الذهبية "في التأني السلامة وفي العجلة الندامة" لا تعد الدقائق ولا الساعات، ترى بقية الحيوانات حولها تركض وتزأر وتزمجر وتشكو وتتذمر، وهي تسأل ذاتها بدهشة كلية ما معنى تلك الحركة كلها وما عسى أن يكون سبب ذاك التذمر؟.. تسمع الأسد يئن من ضيق المجال ويطلب الفضاء، فتنظر يمنة ويسرة ولا ترى من عقبة في وجهها كيفما انقلبت، فتضحك حتى تنقلب بطنًا لظهر وتقول في ذاتها حقًا "إن الجنون فنون". وإذا حدث وقادتها خطواتها إلى السياج يومًا تدير للحال رأسها يمنة أو يسرة وتتابع السير، ويكفيها أن صاحبها راض عنها أبدًا، فهي لم تسمع منه كلمة تأنيب في حياتها.

أما عن الحشرات فلا تسل، ربوات منها تدب فوق ربوات وكلها لا تطلب أكثر من فتر من الأرض، فهي ضمن السياج آمن على ذواتها وحريتها مما لو كانت خارجة. وفوق ذلك هي تتنعم برضا صاحبها وتفتخر بنفس الفضيلة التي تربط النمر ورفاقه ضمن السياج.

ولو تصورتم الآن بدل سياج الشوك قواعد الشعر العربي، وبدل الحيوانات ضمن السياج شعراءنا (وليعذروني على هذا التشبيه فالإنسان حيوان ناطق على كل حال) وبدل صاحب الحظيرة وحراسها مئات الأجيال والدواوين التي التفت حول أشواك السياج فحولتها إلى أسنة تقطر سما وحراب ينظر من أطرافها الموت وأكسبتها حياة هيئة سرية

غريبة فجعلتها مقدسة في أعيننا، مرهوبة في قلوبنا، بعيدة عن أن يتناولها قلم الناقد أو أَن يلحقها لسان المصلح.

لو تصورتم ذاك لأدركتم كم دفنت اللغة العربية ضمن السياج من أرواح حرة ونسمات سماوية وقرائح حية وكم أدخلت إليه من أرانب وسلاحف وحشرات، ولأَدركتم في الوقت نفسه حالة بشري خاطئ مثلي جاء يحفر الآن حول ذاك السياج، بل السور الذي شادته الأجيال وقدسته الأيام والشرائع والعادات فجعلته مدفنًا لحرية الخيال وقصرًا للزعانف والديدان.

أنا أحفر، ولا أمل لي أن أزعزع أركان هذا السور إلى الأبد (وحبذا لو كان ذلك في إمكاني) إنما لي أمل أن أجد من يضم فأسه إلى فأسي، لي أمل أن أسمع صدى ندائي يتردد في ألحان بعض شعرائنا الناشئين، لي أمل أن أحرر ولو قريحة واحدة شعرية من قيود كبلتنا بها زمرة من أبناء البادية قبل أن رأينا العالم أو رآنا العالم.

دعوا النسور تحلق في جوها فالفضاء كله وجد لأجلهم دعوا البزاة تسبح تحت سمواتها، دعوا الصقور تمزق الهواء بأجنحتها، وبربكم لا تحصروها مع الدجاج في الأفنان!.

إذا شقَّ عليكم أن تودِّعوا بحور الشعر أفلا سبيل لكم أن تستغنوا عن علمي العروض والقوافي ؟ وإِن لم يسهل عليكم أن تطرحوا الأوزان أفلا طريقة نطرح بها عنا القافية؟ وإِذا استحال علينا أن ننبذ القوافي،

أمن الواجب أن نلصق بكل بيت من أبيات القصيدة ذنبًا و"كشكشًا" متشابهين؟.

إن كانت الغاية من التقفية تشنيف السمع فبئسها موسيقى نشنف بها آذاننا إذا كنا نسمع بين اللحظة والأخرى صوتًا واحدًا لا يتغير كوقع الدلفة أو لقيق الضفادع، تصوروا قصيدة من ١٢٠ بيتًا أو أكثر تسمعون فيها كل عشر ثوان كلمة "عين"، نعم، شجية هذه الموسيقى ولا شك، ولكن عند بدوي يسير وراء جماله فيقطع ألحانه على وزن وطئها، وما أجملنا اليوم نقلد البدوي في نيويورك وباريس وبيروت والقاهرة الخ !!!.

حتى لو كان في ذاك بعض اللذة الموسيقية فمن الحيف والجهل أن نضحي لأجلها بحرية الإبداع في الشاعر وأن نطلب منه أن يشوه الفكر الذي يود نقله والصورة التي يرغب نقشها لأجل تلك اللذة التي لا أقدر أن أدعوها، مع كل اعتباري للموسيقى، سوى بلادة موسيقية.

حرام أن نشتري الزجاج بالماس، وأن نضحي بالجوهر في سبيل العرض، قد دفعنا حتى هذا اليوم جزية باهظة للقواعد والتقاليد ولا نزال ندفع ضريبة فاحشة من الأفكار الجميلة والخيالات السحرية والصور الفنية لتلك التقاليد عينها، ويخال لي – وأنا مؤكد تقريبًا حقيقة خيالي – أن تلك التقاليد هي أكبر الأسباب بل السبب الوحيد الذي حرمنا من شاعر روائي كبير كهوميروس ومن شاكله من القدماء وقضى على أبناء الضاد أن لا يكون لهم آثار فنية شعرية كاليونان والهنود والعجم وغيرهم.

لكن تصوروا – حفظكم الله – هوميروس يكتب إلياذته أو أوديسيته باللغة العربية! أو شكسبير ينسق رواياته الأبدية حسب قواعدنا الشعرية.

تصوروا دانتي ينظم "كوميديته الإلهية" بقافية واحدة أو بعشر قواف إذا شئتم، أو ملتون ينشد "فردوسه المفقود وفردوسه المردود" بقافية عينية أو حائية أو شينية!..

أغريب بعد ذلك أن كل ما ظهر من الشعر في اللغة العربية من عهد عاد وثمود إلى الآن لم يتعدَّ بضعة أبواب محصورة بين حماسة وغزل وهجاء ومدح ورثاء؟.

أمن العجب أن شعراءنا اليوم لا يتجاوزون هذه الحدود التي وضعها لهم الأسلاف؟ أنا لا ألومهم في ذلك، إنما لا أقدر أن أفهم كيف أنهم لا يزالون يجرون نيرًا ثقيلًا تقرحت رقابهم تحته ولم يخطر لواحد منهم أن يطرحه عن عنقه.

أنا لا أصدق بوجود شاعر عربي لم يناطح القوافي ويطاردها ولم يصرف دقائق، بل ساعات، بل ليالي في حربها والتنقيب عنها، أنا لا أصدق بوجود واحد لم يشعر في مثل تلك الساعات بثقل النير وضغطه وبلعنات تتراكض إلى أطراف لسانه خارجة من أعماق قلبه، وإذا كنا إلى الآن لم نسمع شكوى ولم نرَ اعتراضًا فذاك لأننا ألفنا احتمال الضنك "على السكوت"، وكثيرًا ما نفضل أن نصبر على الضيم من أن نرفع ضده صوتًا.

الفنون الجميلة، كسواها من مناهج هذه الحياة وفروعها، معرضة للظلم والفساد والعبودية والاستبداد فهي تحتاج بين الفرصة والأخرى إلى محررين يجرؤون أن يرفعوا صوت الاعتراض ضد قيود الاستعباد، للمماليك محررها وللأديان مصلحوها وللفنون محيوها، والشعر كفن جميل يحتاج دائمًا إلى نسمة حياة جديدة تنعش عظامه القديمة، وشعرنا العربي لا دواء له سوى ثورة تزعزعه من أركانه فتقتلع كل ما عفن وأنتن من أصوله وتقيم على أنقاضه بناءً جديدًا للقريحة العربية الحرة.

وإني لا أرى الغيوم تتلبد والفضاء يقتم والبرق يلمع وأسمع زعزعة الريح عن بعيد وولولة الأَشجار في الغابات. وإني لأشتم رائحة العاصفة وقد انتشرت في الهواء، وليس ذاك اليوم بعيدًا حين تقصف أول رعدة وتنفجر أول سحابة لتجرف أوهامنا الشعرية وتعتقنا من قيود تكاد تذهب بأنفس ما فينا من المواهب والآمال، لا بل قد أتى ذاك اليوم فإني لأقرأ في نثر جبران خليل جبران مرثاة للشعر القديم وقواعده، وفي بعض أشعار "إليف" أرى لحد القافية المتتابعة في كل بيت من أبيات القصيدة.

وإذا كنت قد أطلت الحديث في هذا الباب فذاك لأن قشعريرة تعتريني عند ما أفكر بالساعات والأيام والسنين الذهبية التي تصرفها شبيبتنا داخل المدرسة وخارجها في الاعتناء بحفظ كل ما يتعلق بالنظم من القواعد والقوانين وفي درس قشور الشعر لا لبه، لأَني أرى أمتنا السورية التاسعة مشبكة بالقيود من الداخل والخارج فيشق عليَّ أن نرانا نمكن ما نقدر على حله منها بأيدينا وكفانا يا قوم ما نحمله من تظلم

الغير وتعديهم، وأخيرًا لأني أرى مواهب شعرية حقيقية وقرائح حرة حية تذهب ضحية الأوهام التي ورثناها عن أبناء البادية فتنسحق تحت ثقلها أو تضيع بين منعرجاتها وسراديبها وبما أني لا أرى عندنا من المواهب ما نقدر أن نستغنى عنه أو نفرقه على الغير أو نقدمه ذبيحة لعلماء الشعر وأئمة اللغة فأنا أغار على كل ذرة منها تذهب سدى أو تموت لأنّ جراثيم الموت التي ورثناها عن أجدادنا تولد معها وفي إمكاننا أن نستأصل تلك الجراثيم إذا شئنا.

وقد آن لنا أن نقف ولو مرة في ألفي عام أمام هذا السور الحديدي من الأوهام والتقاليد التي زفها إلينا الأسلاف ونسأل ما هو وهل نحن في حاجة إليه، آن لنا أن نكف ولو برهة قصيرة عن حرق بخورنا أمامه ليتبدد عنه دخان الدهر فنراه في هيأته الحقيقية، ولو فعلنا ذاك لانقشعت عن أبصارنا غمامة رافقتنا دهورًا ولم نكن ندري بها.

فحبذا يوم نسمع فيه شاعرنا يوقع ألحانه على الأوزان التي يختارها قلبه وتميل إليها نفسه دون أن يرى ذاته مربوطًا بلوازم العروض والقوافي، حبذا اليوم يوم لا نعود نعبد فيه الهيأة الخارجية أو نقيس الشاعر بقواعد الصرف والنحو، وحبذا اليوم ندفن فيه الطائيات واللاميات والعينيات والخاليات في غبار التاريخ ونفتح لشعرائنا مجالًا للخيال والتعبير لا تحصره قافية ولا يقيده روي!.

أخي

أخي ! إن ضجّ بعد الحرب غربيٌّ بأعماله،

وقدّس ذكر من ماتوا، وعظّم بطش أبطاله،

فلا تهزج لمن سادوا، ولا تشمت بمن دانا،

بل اركع صامتًا مثلي بقلبٍ خاشعٍ دامٍ

لنبكي حظّ موتانا

***

أخي! ان عاد بعد الحرب جنديٌّ لأوطانه،

وألقى جسمه المنهوك في أحضان خلّانه،

فلا تطلب اذا ما عدت للأوطان خلانــا،

لأن الجوع لم يترك لنــا صحبًا نناجيهم

سوى أشباح موتانا

أخي ! إن عاد يحرث أرضه الفلاحُ أو يزرعْ،

ويبني بعــد طول الهجر كوخًا هدّه المدفعْ،

فقد جفّــت سواقيــنا، وهـدّ الذلّ مأوانا،

ولم يترك لنا الأعداء غرسًا في أراضيـــنا

سوى أجياف موتانا

***

أخي ! قد تمّ ما لو لم نشأه نحن ما تمَّا،

وقد عمّ البلاء، ولو أردنا نحن ما عمّا،

فلا تندب، فأذن الغير لا تصغي لشكوانا،

بل اتبعني لنحفر خندقًا بالرفش والمعولْ

نُواري فيه موتانا

***

أخي ! من نحن ؟ لا وطنٌ، ولا أهلٌ ولا جار،

إذا نمنا، إذا قمنا، ردانا الخــزي والعـار،

لقد خمَّت بنا الدنيا، كما خمَّت بموتانـــا

فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقًا آخـــــر

نُواري فيه أحيانًا

الحنطة والزوان

(نظرة في الأيوبيات)

يتوهم البعض أنني أجد لذة كبيرة في التنديد بشعرنا وشعرائنا والمجاهرة بفقرنا إلى الأدب والأدباء، يقولون أنني لا أرى في حياتنا الأدبية سوى جهتها السوداء، وإنني أحول نظري عن كواكبها وشموسها، وأن لا وتر عندي أضرب عليه سوى وتر الندب، وأني أسير في حقل حياتنا فلا تقع عيني سوى على زوانه وأشواكه، وما حيلتي إذا كنت لا أرى من حولي سوى الزوان والشوك؟ إذا شكوت فقرنا فلاعتقاد راسخ في عقلي بأننا لن نسعى وراء تحسين حالتنا حتى ندرك كل ما فيها من البؤس والظلمة والخمول، وإذا ندبت وجه يومنا القاتم فلأني أؤمن بأن فينا من القوى والمواهب ما يجعل يومنا باسمًا ويبدل ظلمتنا بنور، وأظن أن يومنا يتمخض بغد باهر لكن ولادة هذا الغد ستكون محاطة بأوجاع مبرحة سببتها لعنات أمسنا، ونحن نشعر الآن بهذه الأوجاع لكننا نحتملها كما تحتملها الوالدة التي ستصبح أُمًا.

وفي "الأيوبيات" نرى صورة هذا الدور الانتقالي الذي نتكلم عنه في ديوان "رشيد أيوب" قد لامس طرف ليلنا وأهداب فجرنا، وهذه حلاوة الديوان في نظرنا.

من يطالع قصيدة "فرديناند وجيشه" أو "حنين" أو "رثاء المطران هواويني" أو "وقفة على الهدسن" وسواها ولا يسمع فيها أصواتًا قديمة عرفناها وألفناها وملها سمعنا؟ أم من يقرأ أبياتًا كهذه:

اذا ما نسيم الشوق هز قريحتي تساقط منها الدر في روضة الشعر

أو–

لا شاع شعري بما احتوى دررًا ولا تباهـــت بنظمـــي العـــرب

أو–

ألمـت بصـدري كـل نازلـة إذا ألمـت بصـم الراسـيات تزعـزع

الخ ...

من يقرأ مثل هذه الأبيات ولا يدرك على الفور أنها رنات أوتار قديمة في شعرنا أخذت والحمد لله تتقطع رويدًا رويدًا؟.. إذا سئمنا القديم ونبذناه فليس لأننا نعد كل قديم باليًا فاسدًا، ربما صعب على شاعر اليوم أن ينظم في موضوع لم تتناوله قرائح الشعراء قبله ربما لم يترك لنا امرؤ القيس والنابغة والمتنبي وأبو تمام وسوفوكلس وهوميروس ودانتي وشكسبير وملتون ما نقدر أن ننظم اليوم الشعر وندعوه جديدًا، لكن الشاعر الحقيقي من يرى هذه الأشياء نفسها فيطرحها في أتون عواطفه ويمددها على سندان قريحته ويصقلها بمصقل أفكاره ثم يقدمها لنا في هيأة جديدة تساعدنا لنرتفع فوق أقذار الحياة وشناعتها إلى جمال

البقاء وكماله، وأكثر شعرائنا الذين يشكون قلة المواضيع الشعرية، ولذلك يعالجون المطروق والمبتذل، لم يدركوا هذه الحقيقة – ولعل أبناء الغد سيدركونها إذا ضاقت بالمشاعر الطبيعية كلها فلا يجب أن تضيق به نفسه، نفس الشاعر وقلبه خزينة لا تفرغ لمن يعرف أسرارها ويفكر في غوامضها، وهذه الخزينة هي التي لجأ إليها "رشيد أيوب" فأتحفنا منها ببعض هدايا ثمينة هي الحنطة في ديوانه وما بقي فزوان.. من هذا القبيل نعد قصيدة "خلياني" هنا نسمع روح شاعر حقيقي نظرت إلى ما حولها فرأت نفسها "غريبة" ورأت "شأنها عجيبًا" ليس يحلو لها "سوى الليل الطويل" لذاك تطلب أن تنفرد بنفسها وتصيح بل تتوسل: "خلياني"، هذه الروح نفسها تحيا مع الطبيعة في كل أحوالها وأطوارها وتنشد:–

أحـــب الشـــتاء لأن لـــه ضـــبابًا كهمـــي ثقـــيلًا كثيـــف

وأهـــوى الربيـــع فأنفاســـه دواء لجســـمي العليـــل الضـــعيف

وأصـبو إلـى الصـيف متأنسًـا بوحشـة ليلـي الطويـل المخيـف

وتشـتاق نفسـي الخريـف وقـد تجنـــى علـــيّ رمـــان الخريـــف

هذه النفثات من قلم الشاعر تكفر عن كل ما في الديوان من المساوئ، تنسينا هنا بيتًا ركيكًا وهناك قافية "محشوة – لضرورة الشعر".

لا فلسفة في الديوان نقدر أن نعيرها هنا انتباهًا خاصًا، شاعرنا يكثر التأفف من أمور الحياة ولا يحاول أن يعلل ولو أبسطها، فكر بأمر الموت والحياة فلم يجد جوابًا سوى:-

فلعمـــري لـــيس إلا حلمًـــا ذلــك الفــردوس قصــه الــرواة

ثم عاد فوجد الأفضل أن يترك كل هذه الأمور المبهمة للخالق، لذلك ينصحنا:-

خـــــل الأمـــــور لربهـــــا لا شـــيء فـــي الـــدنيا عـــرف

هيهـــــات تـــــدرك ياءهـــــا مـــا زلـــت تجهـــل مـــا الألـــف

دعى البعض رشيد أيوب "شاعرًا رقيقًا" ولا ننكر عليه "لقبه" لأن في بعض قصائده، كتلك التي يخاطب فيها شبابه، من الرقة ما لا نراه في أشعار كثيرين من إخوانه في الفن، لكن أهمية "الأيوبيات" –كما قلنا سابقًا– في أنها تمثل الدور الحالي في حياة شعرنا – دور الانتقال – إذا قد جمعت بين القديم المستهجن والحديث المستحب، فيجب أن تطالع لما فيها من الرقة والحداثة.

النهر المتجمد

يا نهر، هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير؟

أم قد هرمت وخار عزمك فانثنيت عن المسير؟

بالأمس كنت مرنمًا بين الحدائق والزهور

تتلو على الدنيا وما فيها أحاديث الدهور

بالأمس كنت تسير لا تخشى الموانع في الطريق

واليوم قد هبطت عليك سكينة اللحد العميق

بالأمس كنت إذا أتيتك باكيًا سليتني

واليوم صرت إذا أتيتك ضاحكًا أبكيتني

بالأمس كنت إذا سمعتَ تنهدي وتوجعي

تبكي، وها أبكي أنا وحدي، ولا تبكي معي

ماذا جرى لك بعد ما قد كنت تهزج في الصباح؟

هل أجمدتك كآبتي وسمعت ندبي والنواح؟

ماذا جرى لك بعد ما قد كنت تنشد في المسا؟

هل داهمتك مصائب مثلي فأخرسك الأسى؟

ما هذه الأكفان – أم هذي قيود من جليد

قد كبلتك وذللتك بها يد البرد الشديد

ها حولك الصفصاف لا ورق عليه ولا جمال

يجثو كئيبًا كلما مرَّت به ريح الشمال

والحور يندب فوق رأسك ناثرًا أغصانه

لا يسرح الحسّون فيه مرددًا ألحانه

تأتيه أسراب من الغربان تنعق في الفضا

فكأنها ترثي شبابًا من حياتك قد مضى

وكأنها بنعيمها عند الصباح وفي المساء

جوق يشيع جسمك الصافي إلى دار البقاء

***

لكن سينصرف الشتا وتعود أيام الربيع

فتفتك جسمك من عقال مكنته يد الصقيع

وتكر موجتك النقية حرة نحو البحار

حبلى بأسرار البقا ثملى بأنوار النهار

وتعود تبسم إذ يلاطف وجهك الصافي النسيم

وتعود تسبح في مياهك أنجم الليل البهيم

والبدر يبسط من سماه عليك سترًا من لجين

والشمس تستر بالأزاهر منكبيك العاريين

والحور ينسى ما اعتراه من المصائب والمحن

ويعود يشمخ أنفه ويميس مخضر الفنن

وتعود للصفصاف بعد الشيب أيام الشباب

فيغرد الحسون فوق غصونه بدل الغراب

***

قد كان ليّ، يا نهر، ضاحك مثل المروج

حر كقلبك فيه أميال وآمال تموج

قد كان يضحي غير ما يمسي ولا يشكو الملل

واليوم قد جمعت كوجهك فيه أمواج الأمل

فتساوت الأيام فيه – صباحها ومساؤها

وتوازنت فيه الحياة – نعيمها وشقاؤها

سيان فيه غدا الربيع مع الخريف أو الشتاء،

سيان نوح البائسين وضحك أبناء الصفاء

نبذته ضوضاء الحياة فمال عنها وانفرد

وغدا جمادًا لا يحن ولا يميل إلى أحد.

وغدا غريبًا بين قوم كان قبلًا منهم

وغدوت بين الناس لغزا فيه لغز مبهم

يانهر ذا قلبي، أراه –كما أراك – مكبلًا والفرق أنك سوف تنشط من عقالك، وهو – لا ....

إيليا أبو ماضي

شاعر قرض الشعر وهو في الرابعة عشرة من سنينه، فأصبح والشعر فيه ملكة والقوافي عبيد له خاضعة يقودها كيف شاء. وُلد في المحيدثة بلبنان سنة ١٨٨٩ وهاجر إلى مصر سنة ١٩٠٠ ومكث فيها منصبًا على المطالعة والدرس لنفسه حتى سنة ١٩١١ فغادرها إلى أمريكا، وسكن سنسناتي، ثم جاء نيويورك في صيف عام سنة ١٩١٦ ليشتغل بالأدب وله "ديوان أبي ماضي"، طبع الجزء الأول منه في مصر والثاني في نيويورك.

الفقير

هـــمٌّ ألـــمَّ بـــه مـــع الظلمـــاء فنبـــا بمقلتـــه عـــن الأغفـــاء

تعـس أقـام الحـزن بـين ضـلوعه والحـزن نـارٌ غيـر ذات ضـياء

يرعـى نجـوم الليـل لـيس بـه هـوى ويخالـــه كلفًـــا بهـــنَّ الرائـــي

فــي قلبــه نــار "الخليــل" وإنمــا فــي وجنتيــه أدمــع "الخنســاء"

قــد عضــه اليــأس الشــديد بنابــه في نفسه، والجوع في الأحشاء

فأقــام حلــس الــدار وهــو كأنــه لخلــو تلــك الــدار فــي بيــداء

يبكـي بكـاء الطفـل فـارق أمـه ما حيلـة المحـزون غيـر بكـاء

حيـران لا يـدري أيقتـل نفسـه عمدًا فيخلص من أذى الدنياء

أم يستمر على الغضاضة والقذى والعـيش لا يحلـو مـع الضـراء

طـرد الكـرى وأقـام يشـكو ليلـه ياليـل طلت وطال فيك عنائي

ياليل قد أغريت جسمي بالضنى حتـى ليـؤلم فقـده أَعضـائي

ورميتنـي ياليـل بـالهم الـذي يفري الحشى والهم أعسر داء

ياليـل مالـك لا تـرق لحـالتي أتـراك والأيـام مـن أعـدائي

ياليل حسبي ما لقيت من الشقا رحمـاك لسـت بصـخرة صـماء

بـن يـا ظـلام عـن العيـون فربمـا طلـع الصباح وكـان فيـه عزائـي

***

وارحمتـا للبائسـين فـإنهم مـوتى ونحسـبهم مـن الأحيـاء

إنـي وجـدت حظـوظهم مسـودة فكأنمـا قـدت مـن الظلمـاء

أبـدٌ يسـر بنـور الزمـان ومـا لهـم حـظٌّ كغيـرهم مـن السـراء

مـا فـي أكفهـم مـن الـدنيا سـوى أن يكثـروا الأحــلام بالنعمــاء

تــدنوا بهــم آمــالهم نحــو الهنــا هيهـات يـدنو بالخيـال النـائي

بطـر الأنـام مـن السـرور وعنـدهم أن الســرور مــرادف العنقــاء

إنــي لأحــزن أَن تكــون نفوســهم غـرض الخطـوب وعرضـة الأرزاء

***

أنــا مــا وقفــت كــي أشــبب بــالطلا مــا لــي وللتشــبيب بالصــهباء

لا تسـألوني المـدح أو وصـف الـدمى إنــي نبــذت سفاســف الشــعراء

بــاعوا لأجــل المــال مــاء حيــائهم مـدحًا وبـت أصـون مـاء حيـائي

لـــم يفهمـــوا بالشـــعر إلا أنـــه قــد بــات واســطة إلــى الإثــراء

فلــذاك مــا لاقيــت غيــر مشــبب بالغانيـــات، وطالـــب لعطـــاء

ضــاقت بــه الــدنيا الرحيبــة فــانثنى بالشـعر يسـتجدي بنـي حـواء

شـقى القـريض بهـم ومـا سـعدوا بـه لـولا هـمٌ أضـحى مـن السـعداء

نـــادوا علينـــا بالمحبـــة والهـــوى وصدورهم طويت على البغضاء

ألفــوا الريــاء فصــار مــن عــاداتهم		لعن المهيمن شخص كل مرائي

إن يغضـــبوا ممـــا أقـــول فطالمـــا		كـره الأديـب جماعـة الغوغـاء

أو ينكـــروا أدبـــي فـــلا تتعجبـــوا		فالرُمْـد يـؤلمهم طلـوع ذكـاء

أوَ كلمـــا نصـــر الحقيقـــة فاضـــل		قامـت عليـه قيامـة السـفهاء

***

أنـا مـا وقفـت اليـوم فيكـم مـوقفي		إلا لأَنـــدب حالـــة التعســـاء

علّــي أحــرك بــالقريض قلــوبكم		إن القلـوب مـواطن الأهـواء

لهفي على المحتـاج بين ربـوعكم		يمسي ويصبح وهو قيد شقاء

أمســـى ســـواءً ليلـــه وصـــباحه		شـتان بـين الصـبح والأمسـاء

قطـع القنـوط عليـه خـيط رجائـه		والمـرء لا يحيـا بغيـر رجـاء

لهفـي ولـو أجـدى التعيس تلهفـي		لسـفكت دمعي عنـده ودمـائي

***

قـــل للغنـــي المســـتعزّ بمالـــه		مهـلًا لقـد أسـرفت فـي الخـيلاء

جبلَ الفقير أخوك من طين ومن   مـاء، ومـن طـين جلبـت ومـاء

فمـن القسـاوة أن تكـون منعمًـا   ويكـون رهـن مصـائب وبـلاء

وتظـل ترفـل بـالحرير أمامـه   فـي حـين قـد أمسـى بغيـر كسـاء

أتضـن بالـدينار فـي اسـعافه   وتجـود بـالآلاف فـي الفحشـاء

أنصـر أخـاك فـإن فعلـت كفيتـه   ذلّ السـؤال ومنَّـة البخلاء

***

أذوي اليسـار ومـا اليسـار بنـافعٍ   إن لـم يكـن أهلـوه أهـل سـخاء

كم ذا الجمود وما لكم رهن البلى   وبـمَ الغـرور وكلكـم لفنـاء

إن الضـعيف بحاجـةٍ لنضـاركم   لا تقعـدوا عـن نصـرة الضـعفاء

أنـا لا أذكّـر مـنكم أهـل النـدى   لـيس الصـحيح بحاجـة لـدواء

إن كانـت الفقـراء لا تجـزيكم   فـالله يجـزيكم عـن الفقـراء

***

؟

قال الغراب وقد رأى كلف الورى وهيــامهم بالبلبــل الصــداح

لـم لا تهـيم بـي المسـامع مثلـه ما الفرق بين جناحه وجناحي؟

إنـي أشـد قـواي وأمضـي مخلبًـا فعلام نام الناس عن تمداحي؟

***

أمفــرق الأحبــاب عــن أحبــابهم ومكــدر باللــذات والأفــراح

كـم فـي السـوائل مـن شـبيه للطـلا فعـلام لـيس لهـا مقـام الـراح؟

لـيس الحظـوظ مـن الجسـوم وشـكلها السـر كـل السـر فـي الأرواح

والصـوت مـن نعـم السـماء ولـم تكـن ترضـى السـما إلا عـن الصـلاح

حكم القضا – فإن نقمت على القضا فاضّـرب بعنقـك مديـة الجـراح!

***

متى يذكر الوطن النوم

جلســت وقــد هجــع الغــافلون أفكـــر فـــي أمســـنا والغـــد

وكيــف اســتبد بنــا الظــالمون وجــاروا علــى الشــيخ والأمــرد

فخلـت اللـواعج بـين الجفـون وأن جهـــنم فـــي مرقـــدي

وضـــاق الفــؤاد بمـــا يكـــتم فأرســـلت العـــين مـــدرارها

***

ذكـــرت الحـــروب وويلاتهـــا ومـا صـنع السـيف والمـدفع

وكيـــف تجـــور علـــى ذاتهـــا شـعوب لهـا الرتبـة الأرفـع

وتخضـــب بالـــدم راياتهـــا وكانـت تـذم الـذي تصـنع

فباتـــت بمـــا شـــيدت تهـــدم صـــروح العلـــوم وأســـوارها

***

نســـاء تجـــود بأولادهـــا علـى المـوت والمـوت لا يـرحم

وجنـــد تـــذود بأكبادهـــا عـــن الأرض والأرض لا تعلـــم

وتغـــدو الطيـــور بأجســـادها فـإن عطشـت فالشـراب الـدم

وفـــي كـــل منزلـــة مـــأتم تشـــق بـــه الغيـــد أزرارهـــا

لقـد شـبع الـذئب والأجـدال وأقفـــرت الـــدور والأربـــع

فكـم يقتـل الجحفـلَ الجحفـلُ ويفتـــــك بـــــالأروع الأروع

ولـــن يرجـــع القتـــل مـــن قتلـــوا ولـن يسـتعيدوا الـذي ضـيعوا

فبـــئس الآلـــي بـــالوغى علمـــوا وبـئس الألـى أججـوا نارهـا

***

أمـــن أجـــل أن يســـلم الواحـــد تطـل الـدماء وتفنـى الألـوف

ويـــــــــزرع أولاده الوالـــــــــد لتحصـدهم شـفرات السـيوف

أمـــور يحـــار بهـــا الناقـــد وتـدمي فـؤاد اللبيـب الحصـيف

فياليـــت شـــعري متـــى نفهـــم معـــاني الحيـــاة وأســـرارها؟

***

وحولـت طرفـي إلـى المشـرق فلـــم أر غيـــر جبـــال الغيـــوم

تحـــول علـــى بـــدره المشـــرق كما اجتمعت حول نفسي الغموم

فأســندت رأســي إلــى مرفقــي وقلـــت وقـــد غلبتنـــي الهمـــوم

***

إلياس فرحات

خصلة الشعر

خصلة الشعر التي أعطيتنيها عندما البين دعاني بالنفير

لم أزل أتلو سطور الحب فيها وسأتلوها إلى اليوم الأخير

***

خنت عهد الحب لا بأس فإني مكتف بالأثر الحلو الثمين

فأنا ما عدت أحيا بالتمني بعد ما منيتي عشر سنين

أشكر الله فما الاخلاف مني أنني كنت لك الصب الأمين

راجعي سيرة حبي، راجعيها فهي نور ساطع للمستنير

وإذا مرت بك الريح سليها إنها تعرف من أمري الكثير

***

هيكلُ الحب تداعى وترامى تاركًا للعين أطلال الوفاء

كتبًا توقظ في قلبي الهياما كلما نام على ذكر الجفاء

إننـي أرنـو إلـى الحـظ احترامًـا فـأرى في الحظ أنقاض الرجاء

وأرى الأسـطر آثـارًا تقيهـا غيرتي الشماء من عبث العصور

وأرى الحبـر وقـد جـف شـبيهًا بمـا علـى بعـض الصـخور

***

وأرى فيمـا أرى شـكلًا مريعًـا خصـلة الشـعر أراهـا فأخـال

جثة الحب، وقد خر صريعًا تحت أنقاض عليها الدمع سال

فيفيض القلب من عيني دموعًا وتغيب الروح عن دنيا الضلال

تلـك آثـار هوانـا فانظريهـا تعلمـي مـا ذا جنـى ذاك الغـرور

ودمـوع صـنتها لا تـذرفيها ليس يمحو جرمك الدمع الغزير

***

ربطـة القلبـين حلتهـا يـداك ويـدي تـأبى امتهـان الشـعرات

لـم يحركهـا إلـى الإثـم جفـاك فهـي لا تعـرف غيـر الحسـنات

لمسها مجموعة الشعر يحاكي لمس هـذا الثغر تلك الوجنات!

إن أعد يومًا إلى الحي تريها مثلما سلمتها يوم المسير

هي كالطفلة في حضن أبيها لا ترى إلا حنانًا وشعور

***

هي أصفى منك حبًا ووداًدا هي أوفى منك رعيًا للذمم

هي في غي الصبى لم تتمادى هي لم تتبع هوى جر ندم

أنت قوضت من الحب العمادا أنت خنت العهد عمدًا وهي لم

لم تراوغ، لم ترى الصب بفيها عسلًا والحقد في القلب يثور

قد وفتني وأنا أيضًا أفيها فكلانا حافظ عهد العشير

***

كلما أذكر أيام صبانا ولياليها اللذيذات العذاب

تصهر الأحزان في قلبي الجنانا وأقاسي كل أنواع العذاب

فاذا أبصرت أن الموت حانا وتصورت نزولي في التراب

نشقه من خصلة الشعر تليها قبلة تخمد ذياك السعير

فتخوض النفس بحر الأنس فيها ويزول الياس عن قلبي الكسير

***

يا حمامة

يـا عـروس الـروض يـا ذات الجنـاحْ يــــــــا حمامـــــــــة

ســافري مصحـــوبةً عنــد الصــباحْ بالســـــــــــــــــلامة

واحملــي شــوق فــؤادٍ ذي جــراحْ وهيامــــــــــــــــــه

***

أســرعي مــن قبــل يشــتدّ الهجيــر بــــــــــــــــالنزوح

واســجى مـــا بـــين أمـــواج الأثيـــر مثـــــــل روحـــــــي

واذا لاح لـــك الـــروض النضـــير فاســـــــــــــتريحي

***

رفرفي في روضة "الأفق الجميل[8]" وتغنـــــــــــي

وانظـري محبـوبتي عنـد الأصـيل وتـــــــــأني

فهـي إن تسـألك عـن صـبٍ عليـل كـــــان عنـــــي

***

خبريهـــا: أن قلـــب المســـتهام ذاب وجـــــــدًا

وســليها كيــف ذيّــاك الغــرام صـــــار صـــــدًا

فهيــامي لــم يعــد فيهــا هيــام بـــــل تعـــــدّي

***

ذكريهـــا بأُويقـــات اللقـــاء والتصـــــــــابي

حــين كنـا كــل صـبح ومسـاء فـــــي اقتـــــراب

علّ بالتـذكار لـي بعـض الشـفاء مــــن عـــــذابي

***

فــإذا مــا أظهــرت حبًــا ولــين واشـــــــــتياقها

[8]) تعريب اسم (بللواور يزنّي) عاصمة ولاية ميناس حيث قضى الناظم نحوًا من سنتين.

فــاجعلي مــا بيننــا عهــدًا مكــين   واتفاقـــــــــــــــــــا

وســـلبها رأيهـــا فـــي أي حـــين   نتلاقـــــــــــــــــــى؟

***

واذا أبـــــدت جفـــــاءً وصـــــدود   واعتســـــــــــــــــافا

فاتركيهـــا، إنهـــا فـــي ذا الوجـــود   ســـــــــــــــــــتُكافا!

حـــين يأتيهـــا زمـــان فتريـــد   وتجـــــــــــــــــافى

***

وغــدًا إن أقبــل الفصــل المخيــف   برعـــــــــــــــوده

مـا الـذي يبقـى مـن الـورد اللطيـف   غيـــــــر عـــــــوده؟

إن للحســـن ربيعًـــا وخريـــف   فـــــي وجـــــوده

***

أليف

ترنيمة السرير

ظـــلام الويـــل قـــد جنّـــا وبـــوق الهـــم قـــد رنّـــا

فـــنم يـــا طفـــل، لا يهنـــا غنـــــى بــــات شـــــبعانا

قتـــــام اليـــــأس غطانـــــا فـــنم، لا عـــــين ترعانــــا

إذا مــــا صـــبحنا حانـــا حســـبنا الصـــبح أكفانـــا

ألا يــــا هـــــمٌّ، يكفينــــا لقــــد جفـــت مآقينــــا

لـــو أن الـــدمع يغـــذونا أكلنـــا بعـــض بلوانـــا

بكـــى طفلـــي ومـــا نامـــا وقضـــى العمـــر صـــوّاما

جنـــى الآبـــاء آثامـــا عليهـــا الله جازانـــا

بكـــى طفلـــي فـــلا يرضـــع ثـــديًا دَرُّهـــا المـــدمع

نضـــا دمعـــي ولـــم يشـــبع وكـــان الـــدمع طوفانـــا

ظلام الليل قد أطفأ   نجومًا تجذب الطرفا

فما للطفل لا يغفى   أيبغى اليوم ألحانا؟

من الألحان لا أدري   سوى أنشودة الصبر

أغنيها من القهر   لطفل بات جوعانا

ملاك الرب في الحلم   يناجي الطفل كالأم

يناديه من النجم   ألا نم ! وقتنا حانا

يناجيه بأيام   ستأتي، خيرها طام

سيروي ماؤها الظامي   ويشفى النور عميانا

ويهديه إلى قطر   كثير النور والزهر

ويأويه إلى قصرٍ   فيغدو الطفل سلطانا

فيؤتى بالذي يرغب   من المأكول والمشرب

فيبقى منهما الأطيب   لأم صبرها خانا

أصـــوتي ذاك قـــد غنـــى؟ أقلبــــي ذاك قــــد أنّــــا؟

كفـــى نـــدبًا، كفـــى حزنًـــا ! فقلـــب الطفـــل مـــا لانـــا

هزيـــر الـــريح مـــا يســـمع ونـــدب الـــروح مـــا أســـمع

كلانـــا منصـــت يخشـــع إلـــى الأصـــوات حيرانـــا

ظـــلام الليـــل قـــد أطبـــق فـــنم يـــا طفـــل لا تقلـــق

يعـــود النـــور والرونـــق إذا مــــا الله أبقانـــــا

***

النهاية

كفنوه !

وادفنوهُ

واسكنوهُ

هوّة اللحد العميق.

واذهبوا لا تندبوه، فهو شعبٌ

ميّت ليس يُفيق

***

ذلّلوهُ

قتلوهُ

حمّلوهُ

فوق ما كان يطيق.

حمل الذل بصبر من دهور

فهو في الذل عريق

***

هتك عرضٍ،

نهب أرضٍ،

شنق بعضٍ

لم تحرك غضبه.

فلماذا نذرف الدمع جزافًا ؟

ليس تحيا الحيطه.

***

لا وربي !

ما لشعبٍ

دون قلبٍ

غير موت من هبه.

فدعوا التاريخ يطوي سفر ضعفٍ

ويصفي كتبه

***

ولنتاجرْ

في المهاجر

ولنفاخر

بمزايانا الحسان.

ما علينا أن قضى الشعب جميعًا –

أفلسنا في أمان ؟

***

ربّ ثارٍ

ربّ عارٍ

ربّ نارٍ

حركت قلب الجبان –

كل ذي فينا، ولكن لم تحرّك

ساكنًا إلا اللسان.

***

أمين مشرق

في الليل

بعـدما تسـرع سـاعات الضـجر ذاهبـــات بنهـــار الكمـــد

أتســـلى فيـــك ياليـــل الســـمر أنـت سـلوى البـائس المنفـرد

***

أنـــا يـــا ليـــل غريـــب مـــبهم وكـــذا أنـــت بهـــيم وغريـــب

وعجيـب فـي الحشـا مـا أكـتم والـذي تكتمـه أنـت عجيـب

وكلانـــا قـــد بـــراه الســـقمُ وكلانـــا لـــيس يأســـوه طبيـــب

قـــد تماثلنـــا شـــفاءً وكـــدر وتشـــابهنا بصـــمت أبـــدي

رب صــمت ضــم معنــى وخبــر لـــــذكاء العاقـــل المتقـــد

***

اسرعت رجل الاسى تـدنو إلـيَّ فسـعت مـن خوفهـا نفسـي إليـك

وطمـا يـومي بـأحزاني علـيَّ فهمـى قلبـي بأشـجاني عليـك

أدمُعًا أسكبها من مقلتيَّ عَلّ فيها راحتي، في راحتيك

ولو أني أسطعت دمعي ما انتثر واصطباري قدة من جلمد

ولو أني اسطعت سري ما ظهر بعد ما كتمته في كبدي

***

خلت قلبي ناسيًا عهد الهوى وظننت الوجد من صدري ذهب

فتشامخت على أهل الجوى وتضاحكت افتخارًا وطرب

ولنفسي قلت إن مال السوى للتصابي فلك المجد طلب

فإذا بي نسمة عند السحر سرحت مثل لهاث الولد

هف قلبي للقاها وطفر طائشًا من وجده لا يهتدي

***

آه أحلام الصبا كم حملت بجناحيها نفوس العاشقين

آه أوهام الصبا كم حولت عن طريق المجد مجرى السالكين

آه أشواق الصبا كم قتلت بجوارها من بنات وبنين

مقطع من نص سردي (بتصرف)[٩]

قد غبت عنك يا أمي فغاب عن عيني وجهك الباسم بملامحه الرقيقة الرزينة، ومعانيه الدقيقة الحنونة، وتراكمت على رأسي هموم الحياة بضجيجها الهائل فضعضعت فكري، وزلزلت قلبي، وتقاذفتني أمواج المتاعب والشقاء فغرت في لجج طامية، وظلمات داجية، وبعينين غشى عليهما الرعب نظرت من أعماق قنوطي فرأيت وجهم اللطيف الثابت يبتسم إليّ من الأقاصي البعيدة فبكيت وبكيت وصرخت "يا أمي!".

آه ما أقسى الغربة، وما أمر الوحشة، قد كرهت البعاد يا أمي واشتاقت نفسي ماضيها الأمين، قد كرهت التمشي بين القصور الفخمة والمباني الشاهقة واشتاق قلبي إلى بيتنا الصغير المنفرد، قد كرهت روائح العطور الفائحة من التماثيل المتخطرة في "برودواي" واشتاقت حواسي إلى رائحة الأمومة المنتشرة من فستانك العتيق، قد كرهت نيويورك وكرهت أمريكا وكرهت العالم ولم يبق لي في الحياة إلّاكِ – إلّاكِ يا أمي!.

في المساء عندما أنطرح على فراشي الخشن القاسي أذكر يديك اللطيفتين الناعمتين، وفي الليل لما تمتزج أفكاري بأبخرة الأحلام أشعر بقدميك الصغيرتين تنقران الأرض حول سريري، وفي الصباح افتح عيني لأراك فلا أرى غير جدران غرفتي السوداء، ولأَسمعك، فلا أَسمع غير

---

[٩] بتصرف.. لضياع صفحتين من النص الأصلي للكتاب (المراجع)

أصوات الغرباء، وفي النهار أمشي متلفتًا بين النساء مفتشًا مسائلًا، أيتها النساء هل رأيتنّ أمي ؟".

جراء الكلاب تجلس في أحضان أمهاتها، وفراخ الدجاج تحتمي تحت أجنحة أمهاتها، وغصون الأشجار تبقى معانقة أمهاتها، وأنا – أنا وحدي – بعيد عنك مشوق إليك يا أمي.

إذا مت يا أمي، إذا قتلني وجدي، ودفنت آمالي في هذه الأرض القاسية الغريبة، فاجلسي عند الغروب قرب غابة السنديان واصغي، هناك روحي امتزجت بنسيمات الغابة وأشجارها يرتلن بهدوء متمايلات مرددات "يا أمي ! يا أمي ! يا أمي".

الفهرس